مقدمة

الحضارات الأولى

تاليف

العلامة الحكيم

غوستاف لوبون

عربه من الافرنسية

محمد صادق رستم

رئيس تحرير جريدة « الافكار » المصرية

طبع بنفقة

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة : ١٣٤١

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على جميع المرسلين

كتاب **الحضارات الاولى** للدكتور الاجتماعيّ الفيلسوف «غوستاف لوبون» مجلدٌ ضخمٌ عظيم، ضمّ في الحقيقة سبعة كتب: الكتاب الاوّل يتضمن بسط المؤلف المدقق للتطوُّر في التاريخ، وكيفية نشوء الاسرة والعادات والاخلاق والنظم والمعتقدات واللغات والقوانين وما إليها، وترقيها. والكتاب الثاني يتضمن كيفية رقي الشعوب الى الحضارة، وعلل الرقي والانحطاط، وهذا ماترجمناه كله للقراء باسم **مقدمة الحضارات الاولى** فشمل النظريات التى طبقها المؤلف بعد ذلك في سائر اجزاء هذا الكتاب على الحضارات القديمة في الشرق وفسرها بها حضارة فحضارة

ويرى القراء ان الدكتور فسر التاريخ وجلا حكمته بقوانين علم النفس ومبدإ النشوء والارتقاء، ولخلوّ العربية – فيما نعلم – من مثل هذه البحوث رأينا أن نعرّب كتابه هذا للناطقين بالضاد، فبدأنا بالمقدمة، وسيتلوها – قريبا ان شاء الله – كتاب (الحضارة المصرية القديمة)، واذا فسح الله في الوسائل ترجمنا للقراء بعد ذلك (الحضارة

الآشورية) و (الحضارة الفينيقية) في كتاب ثالث على حدة لما بين مصر وسورية والعراق من الروابط الوثيقة والاواصر العديدة من قديم الزمان

وقبل ان نشرع في طبع ماترجمناه ـ بهمة صاحبَي المطبعة السلفية ومكتبتها ـ وتقبُّلهما الكتاب بقبول حسن بالرغم من كساد سوق الكتب العلمية ؛ أرسلَ العاجزُ كاتب هذه الاسطر الى ابن عمه في باريس **عثمان رفقي رستم** الموجود بها لاتمام فن العمارة راغبا إليه ان يحصل من جناب الدكتور الفيلسوف على إذن بالطبع والنشر ، فورد كتاب هذا العالم الجليل ، وفيه الاذن مشفوعا بما يعجز القلم عن شكره من التشجيع . قال حفظه الله :

أأذن بالترجمة والطبع ممتناً ، وقد سبق للمرحوم **فتحي زغلول باشا** ـ أيام كان وكيلا للحقانية المصرية ـ أن ترجم بعض تواليفي . واكون ممتنا اذا أعلمتموني ماذا صار اليه أمر كتابي **حضارة العرب**

وتفضلوا بقبول تحياتي الممتازة ؟

اننا وكل من نطق بالضاد مدينون بالشكر للعلامة **لوبون** ولا أنسى هنا أيضاً صديقي المهذَّب فؤاد بك المرابط فمن مكتبته بحلوان عرفت كتاب **الحضارات** ونزعت بي الهمة الى ترجمته . اما الترجمة فكما يرى القاريء صورة من الاصل جهد الطاقة كما تتطلب الكتب العلمية . والله المستعان

القاهرة

محمد صادق رستم
رئيس تحرير جريدة الافكار

غوستاف لوبون

ومؤلّفاته

الدكتور غوستاف لوبون طبيب و اجتماعي فرنسي ، وقف نفسه على خدمة العلم و تقرير حقائقه ؛ حتى تجاوز الثمانين من سني حياته . ولد في بلدة نوجان لي رُترو عام ١٨٤١ . وتولّى في حرب السبعين رئاسة أطباء فرقة من فرق النقالات العسكرية المتحرّكة

وفي سنة ١٨٨٤ سافر الى الهند مكلفاً من الحكومة بمهمة درس هندسة الآثار البوذية ، وساح في أقطار أخرى منها هذا الشرق العربي والى القارئ أسماء أهم ما وصل الى علمنا من مؤلفاته :

حضارةُ العرب

La civilisation des Arabes

ألفه سنة ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ * عربه محمد بك مسعود ولما ينشره

الحضارات الأُولى

Les premières civilisations

ألفه سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ * وهذا الكتاب تعريب مقدمته

حضارات الهند

Les civilisations de l'Inde

ألفه سنة ١٨٨٧

آثار الهند

Les monuments de l'Inde

ألفه سنة ١٨٩١

رحلة الى جبال تتراس

Voyage aux monts Tatras

رحلة الى نپال

Voyage au Népal

الثورة الفرنسوية و رُوح الثورات

La révolution Française et la psychologie des révolutions

النتائج الاولى للحرب

Premières conséquences de la guerre

التعاليم النفسية للحرب الاوربية

Enseignements psychologiques de la guerre Européenne

عربه أميل افندي زيدان

الانسان والجماعات

L'homme et les sociétés

ألفه سنة ١٨٧٧

سرّ تطوّر الامم

Lois psychologiques de l'évolution des peuples

ألفه سنة ١٨٩٤ * عربه فتحي زغلول باشا

رُوح الاجتماع

Psychologie des foules

ألفه سنة ١٨٩٥ * عربه فتحي زغلول باشا

روح الاشتراكية

Psychologie du socialisme

ألفه سنة ١٨٩٨ * كان فتحي زغلول باشا عازماً على تعريبه

روح السياسة

Psychologie politique

ألفه سنة ١٩١٠ * كان فتحي زغلول باشا عازما على تعريبه

روح التربية

Psychologie de l'Éducation

عربه الدكتور طه حسين

جوامع الكلم العصرية

Aphorismes du temps présent

عربه فتحي زغلول باشا

أمس و غداً

Hier et demain

حياة الحقائق

La vie des vérités

دخان التَّبَغ «بحث كيماوي»

La fumée du tabac

أبحاث تشريحية ورياضية

فى سنن تطوّر حجم الجمجمة

Recherches anatomiques et mathématiques sur les los des variations du volume du crâne

اسلوب التخطيط والآلات المدوّنة

La méthode graphique et les appareils enregistreurs

ألفه لمعرض سنة ١٨٧٨ * وطبع سنة ١٨٧٩

التخطيط الفطوغرافي

Les levers photographiques

ألفه سنة ١٨٨٨

الفروسية الحاضرة وأصولها

L' équitation actuelle et ses principes

ألفه سنة ١٨٩٢

مذكرات في الطبيعة

Memoires de physique

تطوُّر المادة

L'Évoluition de la matière

تطوّر القوى

L'Évolution des forces

الموت الظاهري والدفن قبل أوانه

La mort apparente

ألفه سنة ١٨٦٦

فسيولوجيا جيل البشر وأهم الكائنات الحية

Physiologie de la génération

ألفه سنة ١٨٦٨

بحث عملي في الأمراض التناسلية والبولية

Traité pratique des maladies génito-urinaires

ألفه سنة ١٨٦٩

علم الصحة العملي للجندي والجرحى

Hygiene pratique du soldat et des blessés

ألفه سنة ١٨٧٠

الحياة فسيولوجية بشرية

La vie, physiolagie Humaine

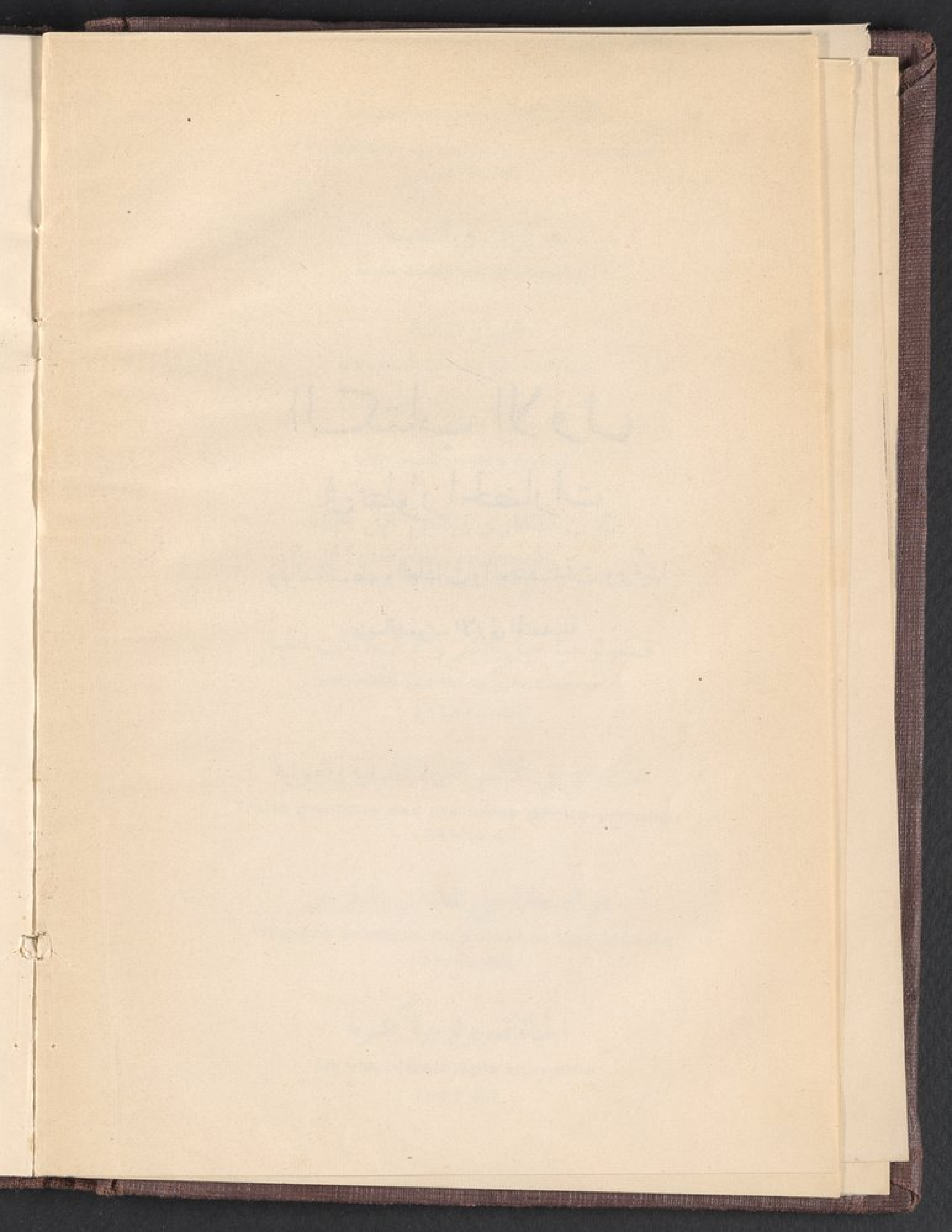
ألفه ١٨٧٢

الكتاب الاول

في تطوُّر الحضارات

وتولُّد النُّظم والعادات والمعتقدات وترقّيها

عند الشعوب الاولى المتمدينة



الفصل الاول

« التطوّر في التاريخ »

١

كان من حظ القرن الماضي — القرن التاسع عشر — عصر البخار والكهرباء ، الذي ولد كثيرا من العجائب ، وغير معتقداتنا ، وخلق عالماً من الافكار والآراء الحديثة ، ان يشهد أيضاً حدوث المكتشفات العجيبة في كافة فروع التاريخ . ولابدع فالسائح ـ الذي يزور خفايا المدن العتيقة الدارسة في آسيا القديمة وأرض الفراعنة وبقايا الآثار الضخمة الرائعة التي تبهر النظر وتشهد باوائل عهد الانسان ـ لايشك في انهذا الانسان قدترك وراءه ماضياً طويلا قبل أن نظم (هوميروس) قصائده وقبل أن قامت على ضفاف النيل (الاهرام) العظيمة وبجانبها (أبو الهول) بتبسمه ذاك الخالد

ودلت كتب الامم جميعاً على ان الناس الى عهد حديث ما كانوا على شك في ردّ أصل الدنيا وخلق الانسان الى تاريخ لا يزيد عن خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف فقط ، ولم يخطر ببال أحدهم ان ذلك الانسان المتوحش العاري كان يجدّ ويكدح في استجماع أصول ترقيه الآجل من قبل زمن التاريخ باكثر من مئة الف سنة ، وانه قطع المراحل الشاسعة وقضى الازمان الطوال قبل الرقي الى الحضارة ، بل لم يكن القوم يومئذ على شيء من العلم فيما يختص بعصر التاريخ نفسه الا بمنقولات غامضة مبهمة احتفظ بها كتّاب العهد العلمي العتيق ، فبني على هذا ان أدوارا تاريخية برمتها تعد بمدة آلاف من السنين كانت محجوبة في ظلمات المجهولات تقوم بها الامم والمدن والامبراطوريات في التاريخ سراعا وتمضي سراعا ، ولم يكن الانسان يتبين شيئاً جلياً من وسط

مجاهل الدنيا القديمة الا اذا وصل الى عصور اليونان والرومان وهي تكاد تعد من العصور الحديثة

غير ان العلم الحديث وان عاش طويلاً بالتقاليد التي لم ترزق من الحظ اكثر من القيمة الاثرية لم يلبث ان خالجته الشكوك في أمر هذه التقاليد ومن ثم أخذ في البحث عن الحقيقة وبفضله أزيل الحجاب الكثيف الذي كان يخفي عنا وجه التاريخ فبدا لاعيننا المنبهرة بغتة مالم نكن نتوقع ، فاذا ماض طويل ودنيا من التمدين ، واجناس ولغات لم نكن على شيء من معرفتها ، واذا بهذا العلم قد جاء من باطن المسكونة ببقايا الصناعة من مثل ما اتخذ الآباء الاولون من السلاح والمساكن وغيرها فاستدللنا بكل هذا على ان الارض وما عليها قد تغيرت كل التغير منذ سكنها الاوائل ، ونشأ للعلم فرع جديد هو فرع (ما قبل التاريخ) الذي بحث ونقب في أصول المدنيات وترقيها فاظهر ان كتبنا القديمة في حاجة الى اعادة الوضع ، وان كل ماورد من التعاليم المتفرقة في العهد القديم والكتابات العتيقة عن قدماء الشرق كالمصريين والاشوريين والفينيقيين والبابليين وغيرهم هي غاية في النقص وقلة الكفاية . وكشف لنا عن عصور طويلة في التاريخ وعن امبراطوريات قوية وجماعات بشرية راقية ومدن زاهرة جهلها المؤرخون وأخذ اليوم يستنطق شهود القرون الخالية ويستحكي أبا الهول والاهرام حكايات الاجيال التي اقامتها ويسأل المدافن والعمد والقصور والمعاهد عن المدهش من أقاصيص الغابرين ، ويشق صحارى (العراق) عن ابنية عجيبة وعواصم كانت مهد سادات آسيا فتقوم من باطن الثرى نافية عن نفسها ثياب السافيات تحدّث بخيلاء عن مجدها الغابر وتتكلم باحرفها الغريبة المنقوشة على جدرانها كما يحدّث القاريء كتاب من حبيب كتب الغداة بلغة معلومة معتادة . فما أعجب طول اناة الانسان وعبقريته في كتشاف هذه الغرائب ، وحبذا مالم يفتنا من اختبارات العصور الخوالى ، فلم يذهب هباء ما عالجه ملايين الناس منذ القدم من ضروب التفكير والكد

والاصطناع والكفاح والكتابة عدة آلاف من السنين ، فوقفنا على تاريخهم وأعمالهم وآرائهم ، وتتبعنا سير رقيهم . ومن ذا الذي لا يعد اليوم الذي نجح به (شمپوليون) بعد جهد عشرين عاماً في حل رموز الهيروغليفي المنقوش على معابد مصر وقد خفي معناه زهاء ألف سنة ، أو اليوم الذي أخرج فيه (بوتا) و(لايار) من صحاري (اشور) مدناً وقصوراً عظيمة بهت لها الناظرون ، أو اليوم الذي تمكن فيه (رولنسون) و (اوپورت) من تفهم أسرار الكتب التي رقدت في زوايا النسيان من مكاتب قصور نينوى ثلاثة آلاف من السنين ، من ذا الذي لا يعد هذه الايام من أيام الانسانية كاليوم الذي بدت فيه لكولمب من أقصى زرقة البحار الشواطىء السندسية للقارة المجهولة ، فاكتشف هذا السائح دنيا جديدة وانسانية حديثة هي أمريكا

ان علماء العصر الحاضر قد وجدوا عوالم قديمة ، وبعثوا انسانية كانت طي الخفاء ، وأخرجوا من النسيان بنور العلم الحديث ماضياً كاد يذهب به العفاء في ظلمات العصور ، فبعثت الشعوب من مراقدها كما كانت عليه في عهودها السالفة ، ورأينا آثارها وفنونها ، وقمنا شهداء على ما عانت من آلام وأوتيت من افراح ، وفهمنا افكارها وعواطفها ومعتقداتها ، وفقهنا بذلك تطور الحوادث في الرقي ، وادركنا مقدار بنوّة الحال للماضي وأبوّته للمستقبل

٢

لم تكن النتيجة الوحيدة ـ لوقفنا على شئون العوالم المجهولة منذ كثير من القرون — تجديد معارفنا التاريخية فقط ، بل قلب جميع آرائنا الماضية في أصل تمديننا أيضاً وفي تطوره على توالي العصور

كان الناس منذ سنين قليلة يظنون أن اليونان هم أصل كل تربية وتهذيب وان فنونهم وعلومهم وآدابهم من مستنبطاتهم ، وأنهم غير مدينين بشيء لمن سبقهم من الأمم . أما اليوم فلم يعد في الامكان التسليم بامثال هذه النظريات ،

فانه وان كان لاشك هناك في بلوغ التمدين القديم تمام ازدهاره في اليونان فلا مرية في ان (الشرق) انما هو منشأ التمدين، وموطن ترقيه. ففي الوقت الذي لم يكن فيه اليونانيون الأقدمون الاجهلة برابرة كانت الامبراطوريات الزاهرة قائمة على ضفاف (النيـل) وفي سهول (كلدة) وقد اتضح ان (الفينيقيين) نقلوا الى اليونان منتجات الفنون والصناعة المصرية والأشورية، فبقي اليونانيون دهراً طويلاً يقلدونها تقليداً قليل الاحكام. انهم لولم يكن قداتيح لهم ماض طويل سبقهم فيه سواهم الى التفنن لما صارت اليونان يوناناً، ولما أقامت (الپارتينون) ولا (هيكل ديانا) ولا سائر عجائب الفن الذي نعجب اليوم بآثاره الدارسة

وكلما كشف الغطاء عن أحوال الامبراطوريات الشرقية العتيقة ظهر لنا عظم ما أخذه اليونانيون عنها واقترضـوه منها • وليست اليونان ربيبة (المشرق) في الفنون فقط، بل تلحق به أيضاً في نظمها ومعتقداتها. فقد كان مشرعوها يستسقون العوائد المصرية والقانون المصري الذي يبحث فيه العلماء اليوم عن مصادر القانون الرومانى ومن هذا تولد قانوننا الحاضر

من هذه المعلومات الجديدة تبدو لنا الامبراطوريات العظمى القديمة كلها ـ بالرغم من تنازعها الدائم، وحروبها القاسية ـ عاملة ناصبة في سبيل واحد هو سبيل الترقي والمدنية. واذا كان التاريخ مملوءاً ببقايا سير الشعوب والديانات والأمبراطوريات التي لم تترك وراءها غير التـذكارات فان الترقي الذي تم احرازه في التمـدين لم يضع قط. وها نحن اولاء نتمتع وننتفع اليوم بنتيجة جهود تلك القرون. فالتمدين اذن قبس تزايد نوره من عصر الى عصر، وقد مرت به الأمم على اختلاف انواعها

وليس تقدم علم الآثار القديمة هو الذي أعان بمفرده على تجديد معلوماتنا وآرائنا في التاريخ فان الاكتشافات في علوم الطبيعة والـكون لها قسطها من العون أيضاً، فبفضلها دخل مبدأ الاسباب الـكونية شيئاً فشيئاً في التاريخ،

وتعودنا اعتبار الظواهر التاريخية خاضعة لقوانين لا تتغير كتلك التي ترشد الى سير الكواكب أو تحول العوالم • وأصبح ما كان يعزوه الكتاب الأقدمون زمناً طويلاً الى العناية أو الى الاتفاق لا يعزى اليوم الا الى القوانين الكونية البعيدة كل البعد عن عمل الاتفاق وارادة الآلهة . فبعض هذه القوانين يسري على الالفات الكيماوية وجاذبية الاجسام ، وبعضها تجري احكامه على الأفكار والأعمال الانسانية وتولد المعتقدات والامبراطوريات وانحطاطها . ولسنا على علم دائماً بقوانين العالم الأدبي ولكننا لا نستطيع تحاشيها قط ، فهي - كما قال أحد جهابذة الفلاسفة - تعمل لنا تارة ، وعلينا اخرى ، ولا تني تفعل فعلها غير عابئة بنا ، فعلينا نحن التحرز منها

ولتقدم العلوم الكونية أكبر الفضل في الأفكار التي شرعت تنبثّ شيئاً فشيئاً في التاريخ ، وقد بدا من شأن هذه الأفكار انها أظهرت بديهة تأثير الماضي وسيطرته على تطور الكائنات ، فدلتنا على وجوب البدء بدراسة ماضي الجماعات لتفهم احوالها الراهنة واستشفاف مستقبلها . وأعلمتنا ان هناك ترقياً في اعضاء الاجتماع كرقي الأعضاء الحيوانية • وان الحكيم الذي يريد فهم انجيل افكارنا ونظمنا ومعتقداتنا يجب عليه أن يبدأ بدراسة اشكالها السالفة كما يفعل العالم الكوني الذي يجد اليوم ايضاح الكائنات في دراسة اشكالها الأولية • ومن يتدبر أمر التاريخ على هذا النحو يجد له اليوم نفعاً عظيما وفائدة كبيرة في الحال الراهنة ، بعد ان كان ضعيف المزية في عهد اقتصاره على تعداد الأسرات الحاكمة وذكر الوقائع .

وللتاريخ الآن المكانة الأولى بين العلوم لأنه عبارة عن تحليلها ، فاذا كانت العلوم الحقيقية تعلمنا كشف امر جسم من الاجسام أو حيوان أو نبات فالتاريخ يعلمنا الكشف عن امر الانسانية ويمكننا من فهمها ، وليس للعقل البشري من مهمة اسمى وانفع من مثل هذه المهمة

٣

هناك عناصر كثيرة تختلف أهميتها ، وفي الوسع استخدامها لتأليف تاريخ أية مدنية من المدنيات . فالمنتجات الفنية لشعب من الشعوب وأدب هذا الشعب ولغته ونظمه ومعتقداته كلها مطبوعة بطابع جهوده ، ودالة على افكاره ، ففي الاستطاعة فهم هـذا الشعب بدراستها وتفهم ظاهراتها . فينبغي لنا في اعادة الشعوب البائدة الى عالم الحياة ان لا نهمل شيئاً مما تناوله نشاطها وراق في نظرها وسر تصورها

ومن بين هذه العناصر المشار اليها صنف خاص يعد أهمها في المرتبة ، وله التفوق على سائرها ، لان الأمم البائدة أنفقت فيه الشطر الأعظم من افكارها وجهودها ، ولان له طبيعة معنوية خاصة تبين لنا جلياً مارمت نحوه وقصدت اليه ، ونعني بهذا الصنف منتجات فن العمارة . فللآثار أفصح لسان يعبر عن الحقيقة باخلاص ، وصحف الاحجار لا تعرف الكذب ، ولشهادتها في تاريخ التمدين أهمية عظمى . وعلى هذا نقول ان رؤية معبد مصري قديم مثلا تزيد في القيمة على تصفح عدة مئات من اوراق البردي . وكذلك كانت المدنيات التي نعرفها أكثر من سواها هي المدنيات التي تركت الكثير من الآثار كمصر مثلا ، ولذا اختصصناها بقسم عظيم من هذا الكتاب [1] فأبنيتها التي سلمت من عادي البلى ناطقة بعظمة مطامحها ، وسمو مراميها ومعتقداتها ، وهي أقدم شاهد على جهودها الأولى ، وامجاد عهد فوزها وازدهارها

وبدراسة المعابد والمقابر في (وادي النيل) تتضح لنا قيمة دلالة الآثار على فكرة الأمـة . فنرى كيف يحيي ويتكلم في الآثار روح مصر القديمة ، وكيف تتغنى الرموز والاشارات الفصيحـة بالأمل الخالد ، وكيف ينبعث في سكون المعابد القليلة النور علم الحياة الأبدية

وانا لنقرأ في آثار (مصر) المدهشة الباقيـة التي لم يقم مثلها في العالم

(١) سننشرع ان شاء الله في تعريب القسم الخاص بمصر وطبعه

محصول خمسين قرناً تقضت في اعمال وجهود وتفكير واعتقاد ، ونفهم بهذه القراءة ما يفعله المطمح الأعلى لشعب من الشعوب في تطور مدنيته ، وندرك الفكر الذي ساد أموره أكثر مما ندركه بدرس الأدب أو غيره عند هذا الشعب

ولما كانت هذه الآثار مؤلفة على الاغلب من شئون خاصة بالموتى أو تخليد ذكراهم ، وكان معظم الابنية انما أقيم كقبور ، فقد دلت أيضاً مع عظمتها وبساطتها على ان القوم ارادوا بها ايجاد شيء يبقى على الدهر بازاء ملايين الموجودات التي تتعاقب على الارض وليس لها حظ الخلود . فكأن فن العمارة المصرية عبارة عن تحدّ تحدت به الحياةُ الموتَ ، وغالبت به الفكرة العدم

غير أن سمو العظمة التي تحلت بها هذه الآثار قد أخلاها من كل ما من شأنه الدلالة على الظرف ، ومما يحرك خيالات النفوس وشهواتها ، أي مما يحصل به ذاك السرور الوقتي في هذه الحياة القصيرة التي خالط الألم فيها اللذة ، واشتد أثرهما كلما قصر أجلهما ، فمن العبث ان يبحث المرء في آثار مصر عن الزخرف المؤلم أو الدقيق السار الذي يكيف لتمثيله الحجر بالعجن والقطع والحفر وغيرها وفق ما يدعو اليه التصور ويوحى به تأثر القلب الخافق الحي

ليس للغرانيت والمرمر في عرف مصر تمثيل اللحم الفانى ، فانهما لما كانا من المواد المكتوب لها ابدية البقاء بعيداً عن متناول التلف فلا يليق بكتلتهما العظيمة الصلدة الا تمثيل الخالد نعني الحياة الباقية والآلهة . وعلى هذا نقول ان الجنس المصري قد احتقر الحياة الدنيا مخالفا كل جنس سواه ،وتملق الموت فلم يكن المصري ليهتم بما يسر أو يحزن أو بمن يحب ويعمل ويبكي ويغني على ضفاف النيل القديم ، وانما يصرف همه الى الموميا الخالدة الراقدة تحت اربطتها تطالع بعينين من الميناء ركبتا في برقعها الذهبي ما نقش بباطن غطاء ناووسها من الاحرف الهيروغليفية الخفية

وكان المصريون يضعون موميا هم تحت جبال من الحجر ويخفونها في مخابئ لم يعرف كثير منها الى اليوم ولن يعرف . وما ذلك الا لشدة حرصهم على صيانتها وكرامتها . وشوهدان بعض هذه المخابئ يزرى بالقصور رحبا وزينة، وبه كل ما تجملت به حياة صاحب الموميا ممثلا بالنقش أو الحفر . فللموميا اذن كل مارمي اليه فن العمارة المصرية . ولها شيدت الاهرام واحتفرت السراديب ونقرت الانفاق ونصبت العمد والمسلات . فكيف يعجب المرء اذن من اختصاص العمارة المصرية بالرسوخ والرهبة والعظمة التي لا يوجد مثلها في كل ما صنع الانسان

أنفت (مصر) مما يهلك ويندثر ، فعملت أكثر من سواها للخلود : فآثارها أقدم الآثار ، ولا يبعد ان تتفرد في المستقبل بمزية البقاء والدوام على كل ما عداها . فاذا ما بردت قارتنا وهوت خالية في الفضاء ، وهلك الحي الأخير ، وذهبت آثارنا العظيمة هباء ، فربما وقف قبر (كيوبس) زمناً أيضاً فكان طللا لدنيا عافية ، وربما مضت احدى الموميات بناووسها المصون في رقدتها الابدية الساكنة وحولها كل ما سرها في الحياة وعلى جدر الصخر الخالد صور من صنوف لذاتها القديمة ، بل ربما كانت (مصر) هي التي ستعلن أخيراً نبأ حياة الانسان على الأرض يوم تخلو من الناس كما رفعت منار مدنياتنا الأولى

٤

لا تقل العوامل التي تعمل في توليد التمدين وترقيه عن العوامل التي تسيطر على ترقي الحي من حيث العدد . ولكن العهد حديث جداً بدراستها ، ولا محل للبحث عن هذه العوامل في كتب التاريخ وان كان في الامكان اظهار أثر المهم منها ، وسندل عليه فيما يلي عند الكلام على سبب ارتقاء بعض الأمم الى التمدين وفشل بعضها فيه ، وتفاوت الأمم التي ابتدأت من نقطة واحدة في الدرجات التي بلغتها في سلم الارتقاء . اما ما سنبينه في أوائل الكتاب فالقوانين العامة التي تحكمت في توليد العناصر المختلفة المكونة للتمدين اذ من الضروري

ان تكون هذه العناصر ماثلة امام الخاطر لفهم أصول النظم والافكار والمعتقدات عند الأمم المختلفة التي أردنا بسط سيرها في هذا الكتاب

أحدث المبدأ الفلسفي الحديث القائل بالتطور تغييراً كليا في العلوم الكونية منذ ٢٥ سنة وجعل اليوم يجدد ما تفهمه من الشئون التاريخية وكان المعروف عند قدماء الكونيين ان التغييرات العظيمة التي حدثت على الأرض ولا يقل أثرها عن التغييرات التي جرت على الاحياء فوق ظهرها انما جاءت فجأة بعد سلسلة من التقلبات والتخلقات المتعاقبة . وأهم من قال بذلك العالم كوفييه وتبعه الاكثرون وظن كل منهم ان أساس هذا الرأي لا يتزعزع . غير ان بعض العلوم الحديثة دل على ان كوكبنا وسكانه قد تحولوا أو تكونوا بسلسله من التدريج تماثل ما يجمع بين الشجرة والبذرة . واذا لم يتدبر المرء الا اقاصي ادوار التغييرات التي تمت فان ما يبدو له منها يبدو عظيماً اما اذا تتبعها يوماً فيوماً فقلما أدركها

تجري التغييرات العظيمة في الحي والجماعة والمعتقد مجراها في الرقي ببطء فقبل ان تصل الكائنات والأشياء الى اشكالها الراقية تمر بسلسلة من الاشكال الوسطى ويكون أثر البيئة في أول أمره غير منظور ثم تبدو التغييرات جليا عند ما يعززها الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح وتضاعفها الوراثة على مر العصور. ولا نستطيع ان نفهم تولد المدنيات وترقيها وأصول النظم والمعتقدات وتعاقب الحوادث وسيطرة القوانين التي تتحكم في مجراها الا بتطبيق مبدأ التطور على التاريخ

الى قانون التطور ـ وهو جماع غيره من القوانين ـ يرجع الفضل في الرقي الذي حصل عليه الانسان أثناء سيره العملي البطيء في ماضيه الطويل الى مستقبل احسن وغاية أرفع وتمام يراد أبدا ولا يدرك أبدا

وهو التطور الذي جعل بتغييراته التدريجية الخفية من احدى الشموس أرضاً تسكن وقمراً قفرا بارداً في عدة ملايين من السنين ، وهو الذي أخرج

الانسان المفكر كذلك من ظلمات الحيوانية ؛ وكان الاصل في التدريج العجيب الذي رقى به الغامض من دنايا الزوائد المخلوقة الى مرتبة النظام العضوي فأوجد مثل نيوتن المعروف . وهو الذي تدرج شيئاً فشيئاً فجعل من ذاك الوحشي الخشن ابن العصر الحجري انسان اليوم المهذب

ولقد نرى امام المامنا التدريجي بقوانين التطور ووقوفنا على أمرها غنى عن تلك السير التي أوحى بها الجهل والتعسف في التصديق وكانت منها أساطير الاولين القائلة باصل الخلق من زوجين تامين نزلت منهما الانسانية وتطرق اليها الفساد تدريجاً ثم أنقذها دم ذكي ، أو الزاعمة وجود الجنة في أول الخليقة ثم اختفاءها وزوالها من الارض وتدخل السماء في مصائر الامبراطوريات وظهور رجل عبقري يغير مجرى الامور وتعقيب ذلك بحدوث القيامة في يوم تنتفي فيه المساوىء والمظالم(١)

لم تعد قواعد الملاحم الادبية بعد أساساً للتاريخ مع ماهي عليه من تدخل القدرة واتيان العجائب والخوارق ، فالعالم العصري يدرس اليوم الظاهرة التاريخية كما يدرس ظاهرة طبيعة أو الفة كيماوية أو سقوط جسم من الاجسام . فاذا ما نجح في الصعود الى الاسباب واتضح له تسلسل المفاعيل ختم عمله ولم يضع وقته في نقد ما لا يفهمه من علم ناقص ، نعني انه ما حصل على الطريقة استغنى عن المذهب

وطريقة العالم العصري في التاريخ اليوم عين الطريقة التي يتوخاها الكوني في مكان الدرس ، فالجماعة البشرية تعتبر كنظام عضوي جار في سبيل الترقي وهناك تولد ونمو اجتماعي كالتولد والنمو الحيواني والنباتي وقوانين التطور التى تسري على الجميع واحدة

واذا تتبعنا التولد والنمو الحيواني صاعدين خطوة فخطوة في سلم الموجودات نستدل على ان اجدادنا الاولين أقرب الى الحيوانات الدنيا منهم الينا ، ونرى كيف خرج كل عضو من أعضائنا بالتحول البطيء يعززه

(١) هذا رأي المؤلف ، فله مارأى

الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح وتضاعف الوراثة من عضو أدنى منه خلقة فنعلم كيف صارت زعنفة السمك عضواً يمسك بالحية الطيارة البائدة في الهواء ثم جناحا للطائر ثم كفا لذات الثدى ثم يدا للانسان في النهاية

والتولد والنمو الاجتماعى – أو بعبارة اكثر سهولة ان درس المدنيات – يدلنا على سلسلة الترقى التى خرج بها شأن الجمعيات المنظمة على تعقيده من حال الوحشية التي طال بها عيش الاولين وكيف كانت جذور افكارنا وعواطفنا ونظمنا ومعتقداتنا في العصور الأولى للانسانية ، فبدلا من ان نرى تلك الهوة السحيقة بين الشعوب التي كانت تأكل الشيوخ المقعدين من أقاربها وبين التي تعنى بهم في شيخوختهم وتبكيهم بعد مماتهم . أو بين من كانوا يعتبرون النساء كالحيوانات الدنيا ملكا لكافة رجال القبيلة ومن احترموهن واحاطوهن بصنوف الرعاية . أو بين من كانوا يعدمون العجزة من الاطفال ومن يسكنون المجانين وذوى العاهات في الملاجىء . تتضح لنا الروابط الوثيقة التي ارتبطت بها على ممر الدهور الافكار والنظم والمعتقدات المختلفة فنعترف بان الحضارات الحالية خرجت بتمامها من الحضارات القديمة وتضمنت كافة جراثيم المدنيات المقبلة وان تطور الافكار والاديان والصناعات والفنون وكل العناصر التي تدخل في تركيب أية مدنية أمر حتم منظم كمثله في الاشكال المختلفة بالسلسلة الحيوانية سواء بسواء

وكلما تقدمنا في هذا الكتاب بدا لنا ان هذا القانون المسيطر الذي يحول الاشياء لايعمل عمله الا بمنتهى البطء فقد قضى الملايين من القرون في تحويل السديم الى كوكب أهل للسكنى وصرف الآلاف من السنين في تحويل وحشي العصور الاولى الى انسان متحضر

وفي وسع الانسان ان يدخل الاضطراب في تطور أية جماعة كما يدخله في تطور الحبة اذا سحقها ، ولكنه لايستطيع تغيير مجراه ، فتمضى الانقلابات العنيفة من دون ان تعقب أمراً دائماً اللهم الا الرقى الذي تأهل له الجنس

واعتـدت له عدته في اجيال مضت . ولا ينقطع سير التطور وقتا ما الا ويعود الى مجراه الطبيعي فالا مم بهذا الاعتبار لا اختيار لها في انتخاب نظمها ومعتقداتها ، فقانون التطور هو الذي يحتمها عليها تحتيماً

ولم تبد للمؤرخين هذه النظرية العظيمة التي حولت العلوم الـكونية في أقل من ٢٥ سنة الا منذ عهد قريب مع أن الجهل بها يجعل تولد المـدنيات وترقيها سلسلة من العجائب والخوارق لا يمكن ادراكها . والصواب المنقول أن أي شعب من الشعوب لم يستطع التفكير في كتابة تاريخه الا بعـد وصوله الى الحضارة بزمن طويل ، نخيل بذلك الى من يدرس آثاره أو كتبه أن حضارته ابتدأت منذ بدأ تاريخه ، ولذا قال كثير من علية المؤرخين ان بعض الشعوب لم تجز عليها الأدوار الدنيا الأولى فظهرت فجأة في الدنيا ومعها كل ما يؤهلها لتكون امماً متحضرة

ونصير هذا الرأي الأكبر مسيو (ريناذ) فقد قال في تاريخه عن اللغات السامية « ان الآريين والساميين ظهروا لنا في كل شأن بدرجة فذة من التهذيب وليس لدينا من مثل واحد على ارتقاء جماعة متوحشة الى درجة الحضارة فمن الواجب القول فرضاً بأن الأجناس المتمدينة لم تمر بالحال الوحشية وانها حملت في ثنيات أمورها من البدء جراثيم الترقي المقبل . ثم الم يكن في لغتها وحدها علامة على الشرف والنبل كفلسفة أولية ؟ »

وغير خاف ان قبول مثل هـذا الرأي انما هو عودة الى السير العتيقة التي زعمت خروج المسـكونة من العدم أو منيرفا مساحة من مخ جوبيتر . فظهور جنس أذكى من غيره وتفوقه في الدنيا فجأة يعد معجزة اذا لم يكن قد أخذ هـذا التفوق عن رقي أجداده . ثم ان القول بعدم رقي أي جماعة متوحشـة الى الحضارة يعد بمثابة نقض لنظرية داروِن على (أصل الأنواع) وكالقول بأننا فيما عشنا لم نر ذا ثدي من المخلوقات الدنيا قد صار انساناً ، ويحسب أيضاً كمحاربة لنظرية تكوّن العوالم وانكار تحول شمس من الشموس.

الى قمر من الأقمار، مع أن هذه التحولات تتطلب مرور عدد عظيم من القرون فلا يمكن ان يلاحظها جيل واحد أو الكثير من الأجيال

وليس بمستصعب أن نأتي بمثل على تحول الشعوب البربرية الى متحضرة فنقول: اننا اذا ضربنا صفحاً عن الآريين الذين ذكرهم (رينان) وكان لهم بفضل لغتهم السيطرة على عصر ماقبل التاريخ فلاجدال في أن العصور التاريخية قد شهدت تحول جماعات من البربرية التامة الى امة متحضرة

ها هم أولئك العرب الرحل المتبربرون قد خرجوا من صحرائهم تلبية لنداء النبي محمد وبعد ان افتتحوا الدنيا القديمة اليونانية الرومانية صاروا في بضعة قرون من أرقى الأمم نظاماً وبقوا زمناً طويلاً على رأس الحضارة. وهاهم أولئك البربر الذين غزوا الامبراطورية الرومانية قد صاروا أرقى امم المسكونة مدنية، ورقيهم وان تم بسرعة في مدة لاتزيد عن نحو عشرة من القرون فليس من ينكرانه جرى تدريجاً بغاية النظام. ومن السهل التفرقة بين درجة الفرنكي الخشن والفيلسوف المولى العظيم ابن القرن الماضي. ومما جعل يواصل التطور سريعاً سهلاً ان البربر وجدوا محصول الحضارة القديمة واستخدموه غير ان كنوز العلم والفن التي جمعها اليونان والرومان لم تحل من دون تقهقر اوربا الى الوراء عدة قرون من جراء الاغارة فمرت أوربا بازمان انحطاط قبل ان يتمكن سادتها الجدد من اكتساب عقليات من سادوهم وغلبوهم، ويستأنفوا السير الى الأمام من المرحلة التي وقف عندها التقدم. وسنبين في فصل آخر جملة الأسباب التي مكنت بعض الشعوب من بلوغ وجوه مختلفة من الحضارة وقصور بعضها عن ادراك شيء منها فلانفحص هذه الأسباب الآن

بقي علينا بعد ان دللنا على وجود أمم رقت من البربرية الى التمدين في عصر التاريخ ان ندل على امكان ترتيب الأمم الحالية في سلسلة تصاعدية تبين للقاريء من أول نظرة تعاقب الوجوه التي تحتم على أرقى الأمم اجتيازها. وقد انشأ جريدة هذا الترتيب من بضع سنوات مسيو (ليتريه) ورأيت من كفاية

صحته في مجمله ما جعلني انقله هنا

قال مسيوليتريه : « نرى في أول السلم الأمم المتحضرة بأوربا ومن خرج منها ونزل بأمريكا واستراليا . ولكن هذا لا يستلزم بلوغ سائرهم درجة واحدة من الرقي

وتأتي الأمم الاسلامية في المرتبة الثانية ونعني بها الأمم التي لتاريخها ارتباط عظيم بتاريخ الأمم المسيحية

ونذكر في الصف الثالث الهنود والصينيين والتتر واليابانيين وهم قوام امم عظيمة غاية في الرقي من بعض الوجوه الا انها بقيت متعددة الآلهة

والمرتبة الرابعة للامبراطوريات التي بادت وكانت كالمكسيكيين وأهالي پيرو ، وعهد دمارها حديث ، ولذا عدت في جريدة الترتيب

وتأتي في الدرجة الخامسة الشعوب السوداء التي لها بداخل افريقية مجموعات على شيء من اهمية الشأن

والمرتبة السادسة في السلم لأصحاب الجلود الحمراء بأمريكا

وفي الدرجة السابعة وهي نهاية السلم نرى البائسين المساكين متوحشي هولندا الجديدة » اه

ونتدبر هذا الترتيب فنجد ان المرء يستطيع من دون الطواف بالدنيا ان يلقى في صقع واحد كالهند خاص باتساع رقعته وبموقعه وبتاريخه اقواماً من كافة درجات السلم الاجتماعى . ومن زار الهند كما زرناها - من اوجرة الوحشية الى المدن الجميلة - يحق له القول بأنه كمن عاش مئة الف سنة ومر بأزمنة ما قبل التاريخ وبالعصر التاريخى . ولا بدع فقد يرى في كثيف غابات (آماركانتاك) جماعات (الخولاريين) بجلودهم السوداء ووجوههم الكالحة اقرب الى القردة منهم الى الانسان يعيشون في الكهوف بلا مساكن ولا حكومة ولا قوانين ولا اسرات ولا سلاح لهم غير سهام من الأحجار المقطوعة

وفي الشمال بجبال آسام جماعات (الناز) أو الخاسيا ، وشكلهم الاجتماعى

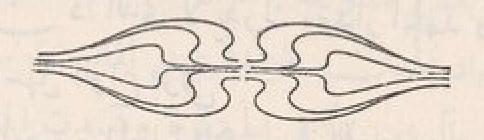
يقوم على دعامة الامومة ، وعندهم تعدد الازواج . وفي الجنوب على شاطىء مالابار جماعات (النايِر) ويمتازون بحسن الوجوه وبالذكاء وبدرجة أرقى من غيرهم في سلم الرقي ، ونظامهم الامومة كالجماعات السابقة

وهناك شعب يقال له (تودا) على جبال نلجيرى الشاهقة كله من الرعاة وعنده تعدد الازواج والزوجات ، ووحدته السياسية والاجتماعية القرية

وفي أواسط الهند جماعة (البهيل) الذين وصلوا الى نظام القبيلة ثم حكومات (الراجبوت) التي تمثل زمن الحروب وعهود الاقطاع وفوق هؤلاء الحكومات الاسلامية ، ثم المستعمر الاوربي المتمدين

ولا بد من مثل هذه السياحات ليفهم الانسان ذاك الترقي النوعى العجيب عوضاً عن دراسته في الكتب ، فيقف على تأثير قانون التطور السارى على كل شيء ، من ديانات وعوالم الى امبراطوريات واناس





الفصل الثاني

« أول عصور الانسانية ، ومصادر التاريخ »

أول عصور الانسانية

لم يكن في برنامج كتابنا هذا ان نأتي على وصف عصور ما قبل التاريخ . غير اننا في اضطرار الى ذكر أهم شئونها لندل على بعد الاشواط التي قضي على الانسانية بقطعها قبل الارتفاع الى مرتبة الحضارة ، فنقول :

مرت مئات من السنين بين العهد الذى امتاز به الانسان على كبار القردة باعماله العاقلة المبدئية وبين الوقت الذى اهتدى فيه الى الاشارات والصور التي ترجمت عما يقرب من افكاره ، نعني زمن احرازه لغة حقيقية . ومن الممكن تقدير هذا الزمن على حساب الطبقات الأرضية التي وجدت تحتها الاحجار المقطوعة وكانت ادوات آبائنا الاولين . ولكن هذا العصر لم يطوطيا تاماً لانه امتد زمناً طويلا عند بعض الأمم ولا يزال موجوداً عند بعضها فان بعض متوحشي أفريقية والاوقيانوسية لم يخرجوا منه الى هذه الساعة

ولم تُكتسب المعلومات والمعارف الاولى الا بعد مضي الوقت الطويل في اكتسابها . ومن ذا الذى لا يدرك مقدار الجهد والنصب اللذين عاناهما الأولون في ادراك اسهل انواع الرقى

ولم تستنر تلك العصور المظلمة الا ببعض المعلومات من مثل الحصول على النار وحرث الارض لبذر الحب وجمع بعض كلمات والمغامرة بالحياة في ركوب الماء بجذوع الشجر المنقورة . ولما اجتيزت هذه الخطى الاولى أسرع الرقى في سيره ولزم الانسانية أكثر من مئة ألف سنة للوصول الى أوائل درجات الحضارة . وتقضي بعد ذلك زهاء ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من السنين قبل ان تولد الطبقات البشرية المستنيرة في اليونان وروما . ثم مر ثمانية

عشر قرنا أوصلتنا الى ماوصلنا اليه . ثم جاء القرن التاسع عشر الذى تحقق فيه من الاكتشافات في كل فروع معلوماتنا أكثر مما تحقق في سائر القرون السابقة

ويقسم الكتاب عصور ما قبل التاريخ الى أربعة اقسام : عصر الحجر المقطوع ، وعصر الحجر المهذب ، وعصر البرونز ، وعصر الحديد

أما العصر الاول ـ وهو أطولها عهداً ـ فقد شهد الانسان حيث تخلص من الحيوانية الأولى على جهل بالزراعة والمعادن وصناعة المساكن ، يلتجىء الى الكهوف ولا عمل له الا منازعة الحيوانات المفترسة فرائسها ، ولا صناعة الا قطع الاحجار قطعاً غليظاً وتركيبها في طرف هراوة للتسلح بها . ولقد دام هذا العصر مدة غاية في الطول وشغل عهداً جيولوجياً برمته تغير فيه وجه الارض وما عليها من حيوان ونبات وجماد . ثم اعقبه عصر الحجر المهذب وتم فيه كثير من الرقى اذ عرف الانسان تدجين الحيوانات والزراعة واستخدام أواني الخزف وانشاء المساكن ونسج الملابس ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن المعادن فظل متوحشا أو بربرياً ولكنه في بصيص من نور الحضارة التي لم يستجل شعاعها الا بعد احراز كثير من التقدم تم له اثناء العصر البرونزي الذي امتد الى حدود العصور التاريخية . وفي آخر ادواره حدثت الحوادث التي ورد ذكرها في القصائد الأولى

وخطا الانسان بعض خطوات أخرى ، فاهتدى الى استخراج الحديد واخترع الكتابة وشاد المدن فابتدأ عهد المدنيات . ومما يذكر ان بعض الشعوب تقدمت شوطاً بعيداً في الحضارة وشيدت المدن ولم تكن تعرف الحديد استعمالا ، كالمكسيكيين القدماء مثلا عند ماهدم الاوربيون مدنيتهم بالغارات منذ أقل من أربعة قرون

ولقد توصل العلم الحديث الى ادراك التاريخ الأولى للانسان مما لم يكن ليخطر بالبال منذ نصف قرن . أما اليوم فان بقايا الاسلحة والصناعات والمساكن تملأ متاحفنا ، وبواسطتها توصلنا الى تمثيل ظروف معيشة اجدادنا الاولين

وهناك مصادر أخرى للمعلومات مكنتنا من زيادة هذا التمثيل ، نعني دراسة احوال بعض الجماعات الموجودة الآن على سطح الارض وليست على شيء من المدنية ، فقد لوحظ انها لم تفق ابناء العصر الحجري في الصناعة بشيء ، ومن طراز معيشتها نستطيع ادراك ما كان عليه اجدادنا الاولون

وتوجد أيضاً شعوب أخرى على شيء من الرقى الوسط وبدراسة أمورها نستدل، على سلسلة الأحوال المتعاقبة التي تقلبت على الانسان قبل وصوله الى الحضارة . خذ مثلا بعض الجماعات الحربية المسماة (أشانتى)في أفريقية فاناسها يعرفون الخزف والمعادن وطرق معالجتها ولكنهم لا يختلفون في العيش عما كان عليه ابطال البربر الذين ذكرهم (هوميروس) وليست صناعاتهم وفنونهم بأقل من صناعات اليونان في عصور البطولة

ولم ذا نذهب الى دراسة المتوحشين ، وفيم نزور المتاحف ، وفي وسعنا ان نرى رأي العين المراحل المتعاقبة التي قطعها الذكاء الانساني الأول على مر العصور بتتبع ارتقاء الذكاء عند الطفل

علمنا النشوء والارتقاء ان الكائن الانساني يمر أثناء اقامته في بطن أمه بكافة صنوف الاشكال الحيوانية المتعاقبة التي تشكل بها جميع اجداده في العصور الجيولوجية . وكذلك يتلخص فيه الترقى التدريجي لجنسه . ففي الشهور الاولى من الحمل يكون الجنين شبيهاً بالاسماك ثم بالمخلوقات التي تعيش في الماء والهواء ثم يشبه بعد ذلك ذوات الثدى مبتدئاً بالدنيا منها ، وبعد الولادة تبلغ معظم الاعضاء شكلها النهائى الا المخ والذكاء فانهما يستمران في تطورهما ، وتمر عقلية الطفل بكافة الادوار المتعاقبة التي مرت بها عقلية اجداده منذ البربرية الاولى ، فاذا تتبعنا ترقيه العقلي حصلنا على صورة من ترقى الانسانية . والأوربيون والمتوحشون سواسية دائماً في المرور بهذه الادوار الأولية فقط ، ولذا نرى اطفال السود الذين يتربون مع صغار الأوربيين يتبعونهم أولا بلا صعوبة في ادوار الرقى ، فاذا ما وصلوا الى درجة معلومة منه مضى مخ

الأبيض في التطور الى ان يبلغ الدرجة التي بلغها اجداده ووقف مخ الاسود عند الحد الذي بلغه مخ اسلافه ولم يتخطه ، وهناك تبدو الهوة العميقة التي تفصل بين الجنسين ، ولا يمكن ان تزول الا باستمرار عمل الوراثة وتضاعفه ببطء في مئات السنين

ظهر اذن من جميع ما مر ان تتبع تطور العقل والعواطف عند الطفل ييسر فهم تطورهما عند انسان الازمنة الأولى

وان الطفل بطبيعته الدافعة العمياء أو سائقه الطبيعي وبانانيته وبخلوه التام من الخلق وبفطرته على الافتراس يشبه أحط انواع المتوحشين ، فاذا استكمل القوة والشهوات تم الشبه

وفي رأينا ان دراسة نفسية الطفل تكفي في الدلالة على ما عسى أن تكون عليه عواطف الانسان الأولى وافكاره اذا أعوزت المستندات الجلية فيما يختص بدراسـة المتوحشين الآن ، ونعني منهم من لم يتخطوا مميزات العصر الحجرى المهذب . وبناء على ما تقدم نصف ذاك الانسان الابتدائي بأنه كان مسوق مفترس خلو من بعد النظر ، يسعى ليومه ولا يفكر في غده ، وليس له من قانون الا قانون الاقوى الاشد . اما ذكاؤه فكان أولياً محضا وكانت معرفته للطبيعـة وظواهرها مرتكزة على أغلظ ما عرف من ارتباط الأفكار كالاسكيمو الذي يشاهد قطعة من الزجاج في أول مرة فيضعها في فمـه مقتنعاً بانها ستذوب لشبهها الظاهر بالجليد . وهذه الظاهرة العقلية كالتي تدفع بالجاهل الى وضع الهائشة في مصف الاسماك . وكل العقول الدنيا من هذا الطراز

وأقل بحث يجريه الانسان في احوال المتوحشين الحاليين يدل على حطة مستواهم العقلى فكثير من الشعوب كبعض الاستراليين والبوشيمان والهوتنتو لا يستطيعون العد الى أكثر من ثلاثة أو خمسة . حكى (جالتون) فقال ان المتوحش بجنوب أفريقية يعطي الخروف ويأخذ ربطتين من التبغ ولا يستطيع ان يفهم ضعف هذه الصفقة ، نعني انه اذا توافرت عنـده الخراف ورغب في

الكثير من حزم التبغ باع خرافه واحداً فواحداً وتسلم في مقابل كل خروف حزمتين على حدة ، ولا يأمن الغبن الا اذا تصرف بهذه الكيفية

واذا اغضينا عن عقلية آبائنا الأولين واردنا مجرد الالمام بما كانت عليه معيشتهم فما علينا الا النظر الى المتوحشين الحاليين خصوصاً من لم يصل اليهم أي بصيص من نور الحضارة

راقب الذين ساحوا في الاوقات الحاضرة احوال المتوحشين عن كثب فاعترفوا بأن الحالة الطبيعية من أقبح الأشياء وان غير المتمدين حيوان غاية في الميل الى الشر، ودلت شهاداتهم على ان المتوحشين الذين قاربوا بمصنوعاتهم وطراز معيشتهم ماكان عليه الاولون لا يمكن ان يقارنوا بغير الحيوانات المفترسة لانهم على جهل مطبق بما نسميه الخير والشر ، ولا دراية لهم بغير قانون الاقوى فيعدمون من أقاربهم من طعنوا في السن ويأكلونهم متى صاروا كلاً عليهم ويعدون نساءهم كدواب الحمل ويقتلونهن بلا مبالاة اذا قل نفعهن

قال (صموئيل باكر) في كتاب له على (بحيرة ألبرت نيانزا) ارجوان يرى الانكليز الميالون الى السود قلب القارة الافريقية كما رأيت واذ ذاك تخلو قلوبهم من الميل الى أولئك الاقوام . فالطبيعة البشرية في حالها الا ولية عند متوحشى هذه القارة لا ترتفع الى ما فوق درجة الغلاظة ، ولا يمكن ان تقارن بشرف الكلب ، فالا سود منهم لا يدرى ما عرفان الجميل وما الشفقة وما الحب وما الاخلاص ، ولم يدر في خلده ما يسمى الواجب والدين . فصفاته التي تميزه هي الطمع ونكران المعروف والانانية والقسوة ،وهو وامثاله جميعاً لصوص كسالى حسدة ينهبون الجار الضعيف أو يتخذون منه عبداً يسومونه الخسف

وقال (ب . سلفادو) في مذكراته عن استراليا : لما دخلنا الغابات لم نجد بها غير مخلوقات هي أقرب الى العجماوات منها الى الانسان تقتتل وتتذابح ليأكل بعضها بعضا وتنبش قبور موتاها ولو بعد ثلاثة ايام من الدفن لتتغذى بها ، ورأينا الرجل يقتل امرأته لأقل سبب والام تقتل ابنتها الثالثة بدعوى كثرة وجود الاناث ، وليس للجميع من دين ولا معبود على الاطلاق

وأكد (أو ليفايد) اذ القليل من الاستراليين تتاح له السعادة بالموت على فراشه موتاً طبيعيا فاغلبهم يرسل الى القبر عاجلا قبل ان يشيخ ويهزل لحرص البقية الباقية على كمية الغذاء

وقال مسيو (دالتون) في كلامه عن متوحشى أواسط بورنيو : انهم يعيشون في حال طبيعية لا يفلحون أرضاً ولا يأوون الى مضارب ولا يأكلون ارزا ولا ماحا ، وليس لهم جامعة تجمعهم بل يهيمون على وجوههم في الغابات كالحيوانات المفترسة ويتزاوجون في الآجام ، فاذا ما ترعرع الاطفال واشتدوا انفصلوا عن أهلهم الى الابد . وينام جميعهم اذا جن الليل تحت الاشجار ، ويوقدون من حولهم النار لطرد الافاعى والحيوانات المفترسة ، وكل لباسهم عبارة عن قطعة من قشر الشجر

اما عادة قتل الاقارب الطاعنين في السن واكلهم احياناً فتكاد تكون عامة عند الأمم الاولية قال (تيلور) ان المتوحشين الغلاظ الذين يعيشون لليوم ولا يدرون ما الغد تشق عليهم معاناة تمريض العجزة وذوى العاهات ويرون الخير في تقصير أجلهم حسما للحياة المؤلمة التي لا تجدى نفعا ، ولذا ترى من واجبات التقى عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية المبادرة الى قتل المرضى والشيوخ ، ويجيزون أكلهم احيانا ، وقد حضر كثير من السياح امثال هذه المشاهد المؤلمة ، ومن هؤلاء (كاتلان) الذي اضطر في الصحراء الى توديع رئيس حربي بربرى يقال له (بونكاه) اقعدته الشيخوخة واضعف الكبر بصره ونحل جسمه فتركه اتباعه بأمر منه وأوقدوا بجانبه ناراً ضئيلة ووضعوا له جرة من الماء وبعض العظام . وكان هذا الشيخ قبل ما حل به من خيرة من خاضوا المعارك وملأوا القلوب رعبا ، فاضطر رجاله الى التخلى عنه في كبره للضرب في الأرض والبحث عن اماكن الصيد . ومما يذكر ان هذا الشيخ غادر اباه فيما سبق بهذه الكيفية عند ما رأى انه لم يعد يصلح لامر من أمور الحياة

ويذكر المؤرخون الأقدمون ان كثيراً من الشعوب البربرية الاسيوية

والاوربية احتفظت بهذه العادة حتى في عصور التاريخ . حكى (هيرودوت) من احوال جماعات المساجيت ان الرجل اذا أسن عندهم وضعف اجتمع اقاربه وقتلوه واشتووا جثته مع لحوم أخرى وصنعوا منها وليمة كبيرة . وكان هذا الامر في عرف أولئك الاقوام أحسن ما يمكن ان تختم به حياة المخلوق

وقال (اليان) كان في (سرديفيا) قانون يأمر الولد بقتل أبيه بالجرز اذا شاخ عنده لان عيوب الكبر عندهم مجلبة للعار . . . . قال : واستمر الصقالبة بعد دخولهم في النصرانية على قتل الشيوخ وذوي العاهات . وكانت جماعات الوند والمساجيت تشوي القتلى بعد ذلك وتأكلهم

وليس لدينا ما يحملنا على القول بأن المتوحشين الذين سكنوا أوربا في عصر الحجر المقطوع كانوا خيراً من الذين ذكرناهم فيما مر ، بل عندنا ما يحملنا على القول بأنهم كانوا شراً منهم ، فالبلاد التي يعيش بها المتوحشون الحاليون ذات جو حار أو معتدل فلا يحتاج ساكنها الى مكافحة امثال ما كافحه اجدادنا التعساء من الوحوش الهائلة يوم ان اضطروا الى العيش اسرات صغيرة متفرقة كالكواسر الضارية

والخلاصة ان الظرف الضروري لكل وجود كان عبارة عن تعدي الأحياء على من دونها وانتظار العدوان ممن فوقها ، والقوة وحدها ذات السلطان ، فليس للمريض والضعيف ومن أقعدته الشيخوخة وافنت قواه الا تطليق الحياة وما هي الا مئات من القرون مرت بعد ذلك حتى عرف اجدادنا ما نستسهله اليوم من عاطفتى الاحسان والشفقة

هذا هو العصر الذي صوره الشعراء من ذهب ، بل العصر الذي حدثت عنه أسفار الكتاب المقدس فقالت ان آدما كان ينتقل اثناءه بباحات الفردوس الارضى تحف من حوله الحيوانات طائعة يمضي فيها أمره . والى هذا العصر أراد الفلاسفة السابقون اذ نعود كما ابان (جانجاك روسو) أكبر مؤثر في الانقلاب الفرنسى اذ قال « ان المبدأ الاخلاقي الادبي الذي ارتكنتُ عليه في كتاباتي

يلخص في ان الانسان طيب بطبعه يحب العدل والنظام ... وان الطبيعة جعلت منه سعيداً صالحاً فجاءت الجماعة البشرية فافسدته واتعسته »

ولم يبق مفكر في عهد (روسو) الا وشاطر الرجل رأيه المذكور . وفي الوسع القول أيضاً بأن المبادىء الفلسفية التى كانت قبلة المشرعين يومئذ انما رمت دائماً الى العودة نحو النظم الاولية لذاك العصر السعيد الذي جرى الظن في ان التساوى بين اناسه جعلهم يعيشون في اخاء عام شامل

ولـكننا رأينا بنور العلم الحديث ما صار اليه امر هذا التصور الباطل فاذا كان هناك عصر ذهبي سعيد فهو أمامنا لا خلفنا ، واذا لزم ان نخلق لمن سلفوا نظماً سياسية واجتماعية فلا ينبغي ان نعزو اليهم ما لا يليق بهم من نظم الفلاسفة الصالحة الحسنة وانما تلك القوانين الحديدية التي تجهل الشفقة لأنها هي التي كانت قوانين الجماعات في عصورها الأولى ومن هذه الجماعات البربرية - التي لا تعرف زراعة ولا تدجينا ولا معادن ولا تدري كيف تتخذ البيوت ولا تحجم عن قتل الأقارب الضعفاء ولا ترثي للمرضى - كان خروج الجماعات المهذبة الراقية بالتطورات المتعاقبة البطيئة ، فعمرت مصر واليونان وروما . واذا حدث وفنيت الجماعات الحاضرة وتحقق حلم الاشتراكيين فسنرى كافة المشاهد الرائعة التي روعت كوكبنا زمناً طويلاً يعد بكثير من القرون ، ويومئذ يقضي على الانسانية أن تستأنف السير في السبيل التي بينا بلاياها خطوة خطوة وهي أقل أملاً في التقدم مما كانت عليه في مبتداها

على أن هذا النذير لا يخشى منه فعمى بعض الناس وجهل الجماهير وان كفلا ايقاع الأمم جميعاً في هاوية البربرية فسيوجد دائماً في طليعة الانسانية من يواصل بها السير في سبيل الرقي ما دامت كما قال پسكال « تعتبر كرجل فذ موجود على الدوام ولا انقطاع لسلسلة تعلمه » . ونقول ان هذا الرجل المجازى رقي وسيرقى أيضاً تبعاً لما يحتمه قانون التطور الساري على العقل المفكر سريانه على أحقر حيوان وعلى آلاف الشموس المنتشرة في فضاء اللانهاية

٢

فجر التاريخ

ما مر بالقاريء مما ذكرناه عن عصور ما قبل التاريخ يكفي للدلالة على النقطة التي ابتدأت منها الانسانية ويبين مقدار الجهود التي عانتها في الارتفاع الى مرتبة الحضارة . فاتضح ان كافة الاكتشافات التي تمت للانسان لم تتم له الا بالجهد المتواصل ، وان العصور الأولى كانت العدة الضرورية للعصور التاريخية فلولا الأولى لما كانت الثانية . ولما لم تكن الغاية من هذا الكتاب تسطير تاريخ العصور الأولى فما علينا الا الدلالة على النقطة التي ابتدأت منها العصور التاريخيه من دون بحث في المراحل التي اجتيزت قبل الرفعة الى التمدين اللهم الا الوجوه الأخيرة التي سبقت عهد المدنية بقليل لتتضح العلاقة التي ربطت زمن البربرية بزمن التمدين المنير الباهر الذي ظهر على ضفاف النيل عند بزوغ فجر الأزمنة التاريخية

ومن أهم ما كشف عنه العلم الحديث تعرف اواخر الازمنة التي سبقت التاريخ ، خصوصاً أحوال الأمم الهندية الأوربية ، اذ لم يبق من رسومها وآثارها وأسلحتها وكتابتها وسائر شئونها شيء ، وذهبت سيرها أيضاً وصمت عنها التاريخ صمته عن سكان (اتلانطيد) الخفية التي غارت فجأة في باطن البحار على قول (افلاطون) الحكيم

ولم يتم تعرف تلك الأواخر التي اشرنا اليها الا باعتبارات شيدت على دراسة اللغة ، فدلت هذه الاعتبارات على أن اوربا وقسماً من آسيا كانا في ازمان ما قبل التاريخ تحت تأثير شعب واحد هو الشعب الآري الأولى الذي باد عند ابتداء زمن التاريخ ، ومن هذا الشعب خرجت الأمم الهندية الأوربية على قول من الأقوال الكثيرة الانصار اليوم ، وان لم نعد منهم . اما مثل هذه الأمم فالهنود الآريون والفرس واليونان واللاتين والصقالبة والجرمان والسلت ... الخ

ولم يترك الجنس الآري وراءه أي أثر ، فعد من الشعوب التي جهلها التاريخ . ولكن البرهان قام اخيراً على سبق وجوده من درس اللغات الهندية الأوربية ، وتمكن العلماء - كاسنبينه - من ادراك تفصيلات نظمه ومعتقداته وطراز معيشته وعاداته

استطاعت الفيلولوجيا المقارنة (علم اللغات) في السنين الأخيرة ان تبرهن برهنة يستغنى معها عن كل فرض على ان اللغات الهندية الأوربية - كالسنسكريتية والالمانية واليونانية واللاتينية .. الخ ، وما تفرع منها كالايطالية والاسبانية والفرنسية .. الخ - أخذت كلها من لغة واحدة . ويسهل تعرف هذا بملاحظة ابنيتها المشتركة وأصولها الموحدة . ومن البديهي ان الكلمة الدالة على شيء أو معدن كالحديد مثلا اذا كانت وحيدة الأصل على ضفاف الغنج والتاميز وبسفوح الألپ وعلى شواطىء البلطيق فلا يمكن القول بأن الأمم التى لفظتها قد أخذها بعضها عن بعض وتناقلتها مع المعروف من أن هذه الأمم انما عاشت ورقت وهى على جهل بعضها ببعض وعلى غير صلة تربطها كما لايصح القول بأنها انتخبت الكلمة جميعاً للدلالة على الحديد مثلاً . وتنفرج مسافة الخلف بين الفرض والواقع اذا قلنا ان هذه الأمم عبرت بعدة كلمات متماثلة عن اشياء متماثلة ، فالاستنتاج الوحيد الممكن انما هو ردكافة اللغات الهندية الأوربية الى لغة واحدة تعد أماً للجميع وان ضاعت اليوم ونعني بها اللغه الآرية التي اتيح العثور عليها بعلم الفيلولوجيا المقارن ، وذلك بجمع الأصول المتماثلة للغات الهندية الأوربية

واذا تدبر الانسان مقدار فساد اية لغة من اللغات بمجرد نقلها الى مكان آخر غير الذي يجري الكلام بها فيه علم ان اللغة الواحدة لا بد ان تكون لأمة واحدة كانت مجتمعة في الأصل بنقطة من الأرض ثم انتشرت منها بالهند وأوربا وهذا شأن الآرية

ويتساءل المرء عن المكان الذي كان به الآريون قبل ان يضطروا بكثرة

العدد الى الهجرة والتفرق • ويجاب على هذا بان تعيين مكانهم على التحقيق لم يتم بعد ولكن افترضوا انه كان ناحية سهول آسيا الوسطى . ومن السهل الآن ادراك الكيفية التي علمتنا بها اللغة الآرية احوال الشعب الآري فليس هناك احكم من اللغات في تعريف مرامي الشعوب وآرائها لأن الكلمات التي يتلفظ بها الناس تنم على كونهم من الزراع أو الصناع أو التجار أو رجال الحرب وعلى انهم من أهل الخيال أو الحقائق ومن المطبوعين على بسط المزاج أوقبضه . وأقول انه لوعرض عليّ بالكتابة المختزلة كل ما يتلفظ به رجل من الناس في غضون عشرة أيام حتى الكلمات الخالية في مجموعها من معنى لتمكنتُ بلا كبير تدقيق من معرفة عمل هذا الرجل وذوقه وسنه ودرجة تهذيبه وخلقه ، فرجل الأدب لاتجري على لسانه كلمات التاجر ، والعالم لا يستخدم الفاظ المتفنن ، وليس للجاهل كلام المتعلم ، ولا لذي المطامع الفاظ الخامل القابع

ولا لزوم للاطالة فبديهى ان الجماعة التي تتلفظ بالكلمات الدالة على الرئيس والقسيس والملكية والأسرة والقماش والخشب والحديد مثلا لا بد أن تكون لها حكومة وديانة وعندها املاك ولها نظام مّا في الزواج ودراية بالحديد ونسج الأقمشة ، ومن هنا عرفوا أن الآريين وان كانوا أقل من الأمم الاولى المتمدينة التاريخية قدراً فانهم فاتوا عصر الوحشية وراءهم بمسافة شاسعة وكذلك يستطاع القول بأنهم كانوا امة زراعة تعرف فلاحة الأرض وتتخذ البيوت وتفتح لها الأبواب والمنافذ وتتعاطى التجارة بالمبادلة ولكنها تجهل العملة والنقود ثم أنها تعرف مبدأ الملكية الذي لا يعرفه المتوحشون لأنها وضعت الألفاظ الدالة على الأملاك والعقار والمنقول والحدود والبيوع والعقود وكانت تدفع الضرائب وتقسم اليمين وتعالج الخشب والحجر والنحاس والبرونز والحديد وتلبس القماش المنسوج ، وظاهر من ديانتها انها كانت تعبد آلهة متعددة مبهمة وانها كانت تعبد قوى الطبيعة وتعرف السحر والأرواح

وتحرق موتاها وتعالج المرضى بالرقى وما شا كلها

وكانت الأمة الآرية لا تعرف الكتابة لأنها أقل من قدماء المصريين شأناً، ولم تعقب كما عقب المصريون أثراً دائماً ، ولم يكن عندها شيء من الفنون والعلوم والنظام الاجتماعي الراقى ، غير ان رجالها كانوا أرقى من رجال العصر الحجري المهذب بل والعصر البرونزي أيضاً

واستعانت دراسة اللغات بمصادر اخرى لتفهم أحوال الشعوب التي سبقت زمن التاريخ ، وأهم هذه المصادر دراسة الأجناس التي لا تزال الى الآن في درجة منحطة من الرقى . فسلم التفاوت الذي كان في الاجتماع منذ آلاف القرون لايزال موجوداً يري الباحث الى الآن التدرج في مختلف اقطار العالم . ولقد سبق لي أن أثبت في كلام ماض كيف يقع نظر السائح على كافة اشكال التمدين من الوحشية الأولى وعصور البربرية الى القرون الوسطى والأزمنة الحديثة بالتجوال في البلاد الهندية . ويؤخذ من جميع ماتقدم ان مواد ايجاد أصل النظم والمعتقدات والصناعات والفنون عند الأمم الأولى المتمدينة لا تعوز الطالب ، فيكفي ان يعمل على ايجادها وترتيبها فتتضح له القوانين العامة التي تنشأ عنها

٣

مصادر التاريخ

ان تدوين أي تاريخ من التواريخ لايمكن أن يتم على وجه عام الا بواسطة المعلومات المأخوذة من الآثار والعقائد واللغات والتقاليد والكتب . فاذا ما وجد بعض هذه المصادر لشعب من الشعوب قيل انه من شعوب التاريخ

وقد ذكرنا في الاول الآثار لانها أقدم شهادة خلفها الانسان تشهد على مروره بالارض وفي هذه الآثار ما بقى من عصور ما قبل التاريخ الى اليوم . فمن ذلك الاحجار الأثرية الهائلة والانصاب المقامة على شكل موائد مستديرة وغيرها مما يوجد بالاراضي القريبة من المحيط الاتلانطيقى . وكانوا يعزونها الى

السلت أو القلت ويرون انها مما أقيم في العصر الحجري . وهناك بعض الآثار الاخرى تشبه المناضد الحجرية ترى في الهند ولا ريب في انها كانت القبور الاولى التي صنعها البشر . وعلى الحافات الداخلية لبعض هذه المناضد صور غريبة ساذجة تعتبر كأول محاولة حاول بها الناس الكتابة غير اننا لانزال على جهل بالمعنى المراد بهذه الصور

وأقدم الآثار – بعد تلك الاحجار الهائلة الصامتة الخالية من الشكل – الاهرام وأبو الهول والمعابد المصرية ، ومن بعدها قبور فينيقية وصخور (فريجى) المغطاة بالنقوش ، ثم القصور والابنية الدينية لاشور ، وقد كشف عنها العلماء الاوربيون أخيرا ثوب الحجاب

وكان معظم هذه الآثار مجهولاً فيما سبق أو مدفوناً تحت التراب وبقي ماعليه من الكتابات طلسما لايحل مدة عشرين قرنا حتى ظن انه من الاسرار التي لايبوح بها الدهر ، فجرى الاكتفاء في تعرف احوال الشعوب القديمة بالمستفاد من تقاليدها وكتبها . ولكن الكتب ليست عريقة في القدم فالمعروف ان أقدمها عهداً انما هو التوراة التي يعزون وجودها الى تاريخ أقدم بكثير من تاريخ وجودها الحقيقي . وكل ما عرفناه في كتاب العهد القديم من سفر التكوين والملوك والقضاة عن المدنيات الاولى بالشرق لم يتعد حداً معلوماً وما بقي لزمنا الرجوع فيه الى اليونانيين مثل هيرودوت وديودور الصقلي وهما لم يمضيا بعيداً في تدوين اخبار جيرانهما ولم يوردا – عدا ملاحظاتهما الشخصية – الا ماتنوقل في السير والاساطير . ويضاف الى ماتقدم التاريخ الذي خلفه مانيتون القسيس في عهد بطليموس فيلادلف اتبع فيه تسلسل السنين وذكر الحوادث ولم يصدقه يومئذ أحد فيما زعمه بشأن أقدمية البلاد المصرية

أما اليوم وقد حلت رموز الهيروغليفي والاحرف المسمارية وأصبح من السهل قراءتها كما تقرأ كتابات هوميروس فانا نستطيع ان نرجع في ثنيات القرون الماضية ٧٠٠٠ من السنين الى الوراء في التاريخ الاكيد . ولا جدال

في ان الآثار المصرية والاشورية قد توضح ما كتب على الحجر أو على البردى فنرى سحن الاجناس القديمة ونستطيع تتبع قدماء المصريين في احتفالاتهم ووقائعهم وأعمالهم ومعابدهم ومدنهم وحقولهم ثم في قبورهم نعني جثثهم المحنطة تحنيطاً عجيباً دفع عنها عادية البلى

ويضاف هذا التاريخ المنقوش في الحجر الى ما احتوته الكتب القديمة النادرة فيكمله ويرينا مبلغ ما كانت عليه سعة الامبراطوريات الاسيوية التي تنبأت قصص الاسرائيليين بقوتها وعظمتها. وبهذا التاريخ أحيينا ذكر الفراعنة وعددنا اسراتهم ولاحظنا صحة قول المؤرخ مانيتون القديم في ان التمدن المصري أقدم تمدن في العالم وان النيل شهد من الملوك اكثر مما رأته عروش أوربا كلها في ١٨ قرناً

ويعد من المصادر التاريخية - عدا الآثار والكتب - اللغات والتقاليد والعقائد. فاللغات تعد وحدها من المصادر التي تمكن الباحث من تفهم حال أية مدنية من المدنيات، كما كان في تعرف أحوال الآريين الاولين الذين لم نعرف حالهم الا من لغتهم

ثم ان دراسة لغات المشرق القديمة كالمصرية والاشورية والفينيقية ولهجاتها قد ردت الينا عصوراً تاريخية برمتها، اذ مكنتنا من تصفح كافة المستندات التي خلفتها الاجناس البائدة. وسنرى فيما يأتي ان اللغات خاضعة أيضاً لقانون التطور وانها بأوليات شأنها وبالدرجة التي تبلغها بعد ذلك من الرقى تدلنا على مقدار الرقى المعادل لما بلغته هي عند الامم التي تتكلم بها

وما قيل عن اللغات يمكن ان يقال أيضاً عن الديانات فوجود الفكرة الدينية عند شعب من الشعوب تدلنا على وجوه تطوره العام فيمكن الحكم على الدرجة التي يتبوأها هذا الشعب في سلم الحضارة بالنظر الى معبوده وهل هو من الخشب المنجر أو هو الرعد أو الشمس أو جوبيتر (المشترى) وميترفا أو المعبود پان أو الرب الطيب ذو اللحية الدكناء والثوب الازرق السماوي

أو هو الله العظيم الذي ليس كمثله شيء أو قشنو الاكبر الذي لانهاية لحدوده أو الرب العالم الذي لايرى على قول الروحيين

غير ان الحكمة تقضى هنا بعدم التسرع في الحكم بناء على الظواهر السطحية فالشعائر الدينية لا تعد شيئاً بجانب ماتبطنه من الاسرار . ومن الخطل مثلا الحكم على عقلية المصريين بعقيدتهم كما وصفها (بوسويه) القائل بان كل شيء كان في عرفهم الهاً الا الله

وللتقاليد القديمة اهميتها أيضاً في التمدين واذا كانت هذه الاهمية ثانوية فلان التقاليد تتناقلها الافواه فتفسد بسرعة ، ثم انها لم تقيد وتدون الا بعد اختراع الكتابة نعنى في عهد متأخر . على ان الكتب الاولية كبعض أسفار التوراة وقصائد هوميروس لم تفعل اكثر من جمع السير العتيقة التى دخلها الكثير من التغيير فكستها لوناً ثابتاً . ومعروف ان بعض السير القديمة المدونة في الكتابات الاولية عند كثير من الشعوب قد أماطت بعض اللثام عن حوادث غاية في الاهمية حدثت في عصر ما قبل التاريخ كالطوفان مثلا فانه اذا لم يكن عم الارض فلا جدال انه كان مصيبة عظمى على اقطار شاسعة

يتضح مما تقدم ان الآثار والمعتقدات واللغات والتقاليد والكتب هى المصادر التي سنستقى منها معلوماتنا في تصوير مدنيات الامم القديمة الشرقية وسنشرع بعد ان ابناها جملة في بسط تأثيرها للقراء وندرسها مباشرة جهد الطاقة غير اننا لا نكثر من ذكر ولادة الملوك وحوادث الوقائع كالحال في كل ما تضمنه التاريخ المعتاد ، وانما نكثر من التغلغل في درس حياة الامم ونظمها ومعتقداتها وفنونها ، وستتجه جهودنا الى تصوير حقيقة أمر تلك الشعوب وكيف صيرتنا الى مانحن عليه الآن بفضل اعمالها ومكافحاتها . ففكرتها لا تزال تنعشنا ، وصوتها لا يفتأ ينادينا من طيات العصور ، فيتردد صداه في سكون الرقاد الابدي من اعماق القبور

الفصل الثالث

﴿ نشوء الاسرة واللغة وارتقاؤهما ﴾

١

نشوء الاسرة

كلما تجاوز الباحث عصور الوحشية والبربرية في أزمنة ماقبل التاريخ بدت له الافكار والعواطف والنظم والمعتقدات مضاعفة ، وظهر له انها عبارة عن اشكال عامة لتطور واحد فذ عند كل الشعوب في بدء تحضرها

وسيكون مطلبنا فى هذا الفصل بسط اصول النظم والافكار والعقائد المشتركة للامم الاولى المتحضرة ، وأهم الاختلافات التي طرأت عليها في انتقالها من شعب الى آخر ، فنبحث أولا في الكيفية التى ارتأى بها الناس اساس الاجتماع في الاسرة والزواج والآداب والمعتقدات والملك . . . الخ ، ثم نقفى من بعد ذلك بتاريخ حدوث المدنية عند كل شعب خصوصا عند المصريين والبابليين والفينيقيين والاسرائيليين . . . الخ

ولا يخفى ان النظم التي يجدها المرء عند كل شعب متمدين خاضعة ـ كالاجناس التى وضعتها ـ لقانون التطور ، فالفيلسوف الباحث لاينثنى امام صفة القداسة التى وصف بها بعض هذه النظم عن محاولة الصعود الى اسباب حدوثها وتتبع ترقيها على مر الدهور

كانت هذه النظم في الوقت الذي ابتدأ فيه التاريخ على درجة ما من الرقى بلغتها وجرت أمورها من ثم بانتظام ، الا انها كانت لا تزال مطبوعة بطابع البربرية الأولى التى نشأت فيها . فتدبر آثارها القديمة ودراسة الشعوب المنحطة يتسنى بهما اذن ايضاح مجمل النظم المهمة والمعتقدات . وسنرى فيما يلى الى أي حد بلغت هذه النظم عند كافة الامم في أول أزمنة التاريخ . ونستطيع بعد ذلك دراسة تفصيلات تغيراتها وأشكالها الخاصة في المدنيات الأولى

ونبدأ بدراسة أول قاعدة لهذه النظم ونعني الاسرة التي أقيم عليها كل ما عداها فنقول : انها كانت في بدء التاريخ على أهمية عظمى اذ اعتبرت عند الاكثرين كوحدة اجتماعيـة فكانت حكومة صغيرة في الدولة الكبيرة ترى الاب فيها الرئيس المطلق والبطريرك القـديم ذا المنظر المهيب يحف من حوله أولاده واحفاده وعبيده وقطعانه ، وهـذا أقدم ماعرف في الازمنة المعلومة ، ولكنه لا يستلزم حتما ان تكون الاسرة البشرية قد ابتـدأت بالبطريركية ، بل ينبغي ان تكون قد اجتازت اشكالا دنيا نجحت بعض الحيوانات في تخطيها

ان فوضى الاختلاط الأولية وعمومية النساء عند القبائل الأولى أمران مشهود بصحتهما وسنسوق على ذلك البرهان

والمشاهد ان فوضى الاختلاط نادرة بين الانواع الحيوانية القريبة من الانسان فغيرة الذكر على أنثاه أو نسائه ـ اذا كثر عددهن ـ من العواطف الشديدة الوضوح في الحيوانية ، والمثل على ذلك الديك والقرد وهما من كثيري الاناث وبعض الطيور التي لا تتخذ اكثر من أنثى واحدة ، فجميعها يدافع عن الالف ولايهاب الموت . ومعروف أيضاً ان الوعول تتقاتل على امتلاك الانثى فيستأثر بها الاقوى ولا يقربها سواه

ولا تدوم الاسرة الحيوانية الا وقت تربيـة الصغار ، وربما امتد أجل المعاشرة بين الزوجين احياناً الى اكثر من ذلك فترى بعض انواع الحيوانات التي لا تقرب غير أنثى واحدة كضرب من ضروب القردة يوجد بالهنـد أو الببغاء الصغيرة ذات الذيل الطويل اذا مات أحد الالفين تبعه الآخر

ويدلنا مثـل الحيوانات على ما كانت عليه العادات الانسانية الأولى ، فنستطيع ان نتمثل الاوائل يتيهون في الغابات ككبار القردة ولا يعيشون الا جماعات صغيرة في كل منها الذكر وعدة من الاناث احتازهن بقوته ودفع عنهن مزاحميه . ثم كانت الضرورات الأولى الاجتماعية كالحاجة الى الاتحاد

والى دفع العدو المرهوب فحلت القبيلة محل تلك الجماعات الصغيرة المبعثرة ، فادى هذا الى عمومية النساء المضادة لعاطفة الغيرة الحيوانية . وتلاحظ هذه العمومية عند كثير من الشعوب المتوحشة وفي الوسع تعرفها أيضاً بالآثار التي تركتها في الشعوب حتى في الازمنة التاريخية ، بل في ثنايا المدنيات الراقية أيضاً

ولقد كانت العزلة شديدة الخطر على الانسان في ذلك الدور المظلم لجهله وخلوه من السلاح ولعدوان الحيوانات المفترسة عليه واضطراره الى مزاحمة امثاله للحصول على النزر من القوت ، فلم ير هذا الانسان بداً من جعل القبيلة وحدة يتفانى فيها الفرد لاستحالة العيش عليه خارجها . ولما كان كل شيء في القبيلة ملكا للجميع فقد جرت المشاركة أيضاً في النساء والاولاد

أما فوضى المخالطة ـ وسنطلق عليها هنا لفظ السفاح ـ فانه حال بين الولد ومعرفة أبيه فكان أول من عرف من الاقارب الام وقلما تبينت للشعوب الاولى رابطة الابوة ،فلما أريد توكيدها لاذ الانسان بعادات مضحكة كعادة الحضانة الشائعة في شعوب جنوب أمريكا ولا تزال في أوربا عند (الباسك) وهم سكان سفحى جبال البرينات (أو البرانس) وخلاصتها ان المرأة اذا وضعت رقد زوجها ومثل آلام الولادة وتقبل العناية التي تبذل لها وسمع التهاني بالنيابة عنها . وغير خاف ان هذه العادة من المستحدثات على ما فيها من سذاجة لان سريانها لا بد ان يكون قد سبقه حتما معرفة والد المولود ولم تكن هذه المعرفة بميسورة في زمن السفاح القديم

ولا يزال السفاح الاولى موجوداً الى الآن عند كثير من الشعوب المتوحشة بالهند وأمريكا وأفريقية وهو على اخصه عند هنود (كاليفورنيا) لا بل عاد اليه اليوم بعض الجمعيات الاشتراكية المعروفة باسم الشيوعية (كومونيست) في الولايات المتحدة الامريكية فالاولاد لا يعرفون أباءهم ويربون جميعاً معا ، ولكن الدال خير دلالة على عمومية هذا النظام في أزمنة ما قبل

التاريخ انما هي الآثار العديدة التي تركها في الحضارات الاولى وأشار اليها أقدم المؤرخين فوصفها (هيرودوت وبلين واسترابون وديودور الصقلي) وقالوا انها كانت موجودة وقت تدوينهم التواريخ عند شعوب (السيت) المتوحشة التي كانت تقطن الشمال الشرقي والشمال الغربي من آسيا وعند سكان الجزر البريطانية وليس الزنا الذي حرمه القانون الديني وروعي كل المراعاة في الشرق القديم ، أو الاعتبار الذي كانت تلقاه البغايا المشهورات في عصر اليونان ، أو ترك الزوجة ليتمتع بها الضيف كما هو حادث عند بعض الشعوب ، أو التضحيات الجنسية التي كان يضحى بها على هيا كل (ڤينوس) الهة الجمال ، الا من بقايا السفاح الاولى

ولا يندر اليوم ان نجد في الطبقات الدنيا من الشعوب المتحضرة بعض مظاهر السفاح الاولى فهي غاية في الظهور عند فلاحي روسيا كما ذكر مسيو (تساكني) في كلامه عن قانون العرف عند الفلاح الروسى وقد نشرته (المجلة العلمية) وفيه قال الكاتب : « لاهالي حكومة (نجنى نوفجورود) مثلا عادة تجتمع بمقتضاها الفتيان والفتيات على أحد الجبال وبعد الغناء والرقص يذهب كل فتى بفتاة . قال : وفي بعض الاعياد هناك يرقص الفتيان والفتيات ثم ينام كل فتى بجانب فتاة ولا يرى أقارب الطرفين في هذا من بأس . وتبلغ الحرية أقصاها بين الذكور والاناث ابان الاعياد في حكومة (اركنجل) ولا من يرى عيبا بل يقع اللوم على الفتاة التي لم تجتذب اليها أحداً من الشبان فيؤنبها أقاربها . وفي كثير من انحاء روسيا عادة غاية في الغرابة تحررها ان الشاب الذي يحل محل غيره من المجندين في احدى الاسرات يكتسب حقوقا على جميع الصبايا في هذه الاسرة اذا طالت اقامته عندها

وفي حكومة (استاوروبول) عادة أخرى لا تزال باقية في الاعراس خلاصتها ان يدعي الفتيان والفتيات الى ليلة رقص قبل ليلة العرس مباشرة ثم يرقد كل راقص مع راقصة وبين الجميع صاحب العرس وصاحبته

وعفاف الفتاة عند أهالي (اركنجل) من الامور المستهجنة فالتي تحمل من السفاح تجد من الرجال من يتزوجها بعد الحمل بخلاف التى تحفظ عفتها » . اه

ومما يبين ما كانت عليه قوة وحقوق المشاركة في النساء عند الاقدمين ان الفتاة لم تكن تقدر على الالتصاق برجل واحد فلا يقربها سواه الا اذا كانت زوجة للقسيس أو ملكا له من قبل كما في (كمبودج) الآن .أو اذا كان قد غشيها أخدان الزوج كما كان عند أهالي جزر (البااليار) في زمن (ديودور الصقلى) . أو كانت ملكا للاجانب كما كان عند البابليين الذين وصفهم (هيرودوت)

وكانت الاوامر الدينية عند كافة الامم العتيقة تأمر المرأة بتسليم نفسها الى أجنبي قبل الزواج . وهذا من قبيل الاعتراف والتمسك بما كان من حقوق الاشتراكية في النساء

وعدا هذا فان بنوة النساء أو الأمومة ـ وهما موجودتان في أوائل عهد التاريخ ـ تشهدان بعمومية الاشتراكية النسائية في الزمن الغابر

ولما كان الطفل يومئذ لا يعرف الا أمه فقد سمى ـ منذ وجدت الاسماء ـ باسمها وورثها وحده من يوم نقلت الملكية من شخص الى آخر . والظاهر ان الامومة استمرت في اثينة الى زمن (اسكروبس) فلم يكن للاطفال من القاب الا اسماء أمهاتهم . ومن الفروض الجائزة القول بان الامر كان كذلك عند المصريين القدماء بدليل تكليف البنات وحدهن اعالة الوالدين في الشيخوخة لان الارث كان لهن من دون الاولاد . ولا يزال نظام الامومة موجوداً الي الآن عند كثير من الشعوب الدنيا بآسيا وأفريقية ، خصوصا أهالي (اسام) وزنوج جنوب الهند

ولما توثق نظام الامومة صار الاخوال أقرب الاقارب الذكور الى الطفل لانه لا يعرف أباه فكانوا يعاملونه معاملة الولد ويورثونه وعند قبائل (اشانتى) عادة مرعية تقضى بان لا يرث الاولاد أباهم بل يرثه أولاد أخته . ومن

قوانين القبائل النازلة في الجنوب الشرقي من أفريقية ان سلطة الرئيس يرثها أخوه أو ابن الاخت

أما الحالة التي أعقبت اشتراكية النساء مباشرة فهى حالة الاشتراكية المحدودة المسماة تعدد الازواج فلم يعد لجميع رجال القبيلة حق التمتع بكل امرأة بل لبعض هؤلاء الرجال فقط، فكان أزواج المرأة الواحدة اخوة يشتركون في التمتع بها. ولا تزال شعوب المغول في (تبت) والزنوج بشاطيء (مالابار) والكثير من قبائل أفريقية وبولينيزيا على عادة تعدد الازواج. وأغلب ما يكون أزواج المرأة الواحدة اخوة كما قدمنا. ويرى المطلع على القصيدة الهندية القديمة المعروفة باسم (مهابهاراتا) ان اخوة (پنداوا) الخمسة اشتركوا جميعاً في ملكية (درا اوپادى) الجميلة ذات العينين الملونتين بزرقة النيلوفر

والمعروف في تعدد الازواج كما في السفاح أن البنوّة الابوية مستحيلة التعيين فتقسم الاطفال اذن بين الازواج الاخوة باعطاء الولد البكر للبكر من الازواج والولد الثاني للثاني وهلم جرا. وهذه قاعدة مرعية في (اسام) وغيرها. ولا يخفى انها صورة أولية ناقصة من الصور الأولى للبنوة الابوية التى لم تظهر في الوجود الا في زمن متأخر نعنى في أوائل عهد التاريخ. ولا ريب في ان ترقى الملكية وعادة الفتح حصرت الاشتراكية النسائية المحدودة وضيقت دائرتها شيئاً فشيئاً على مر القرون

وهناك السبي واختطاف النساء، وكانا من العادات الجارية ايام كانت القبيلة وحدة الجماعة، فبنى على هذا ان الزواج بقى على غير نظام عند الشعوب المتوحشة فالرئيس المتصرف في حصة من الغنيمة التى تؤخذ من العدو يختص نفسه ببعض النساء السبايا، ويبقيهن عنده متاعاً لا يقربه سواه، فلا يجد سائر رجال القبيلة الا المشاركة في بقية النساء على قاعدة تعدد الازواج. ولذا كانت النساء كقطعان الماشية أو كالرقيق فهن وما يلدنه ملك للسيد ينتفع به. ومن المعروف عن قبائل (افانتى) في أفريقية الوسطى ان الرجال يتزوجون

ما استطاعوا من النساء استكثاراً للنسل ثم يتجرون بما يلدون

وقد أخبر كل من مسيو (دزيريه شارني) ومسيو (اولفيلد) ان القوم في استراليا لا يتركون للمرأة الا ولداً أو اثنين ويربون الباقي الى سن العشر فاذا سمن المربى ذبحوه وأكلوه فتبكي أمه قليلاً ثم لا تأبى أن تأخذ نصيبها من لحمه طعاما لها

وبقى لفظ الاب والزوج مدة طويلة بهذا الاعتبار مرادفا للفظ الملك ولم يفرق قانون (مانو) الهندي تفريقاً ظاهراً بين نصوص الملك والاب مع انه أورد ما كان جارياً من العادات قبل عهد وضعه بكثير . ومن نصوصه ان من يتزوج فتاة حاملاً أو ذات طفل فله حق الملك على أولاد زوجتـه فقط . ومما تقدم يتضح ان حق الملك للرجل على المرأة تقرر أولا بحق الفتح نعنى بالسبي ولا يكون السبي الا من الاجنبيات . ومن هنا نشأت العادة الجارية الى الآن عند أغلب الشعوب التى لم تتحضر ونعنى بهـذه العادة ان لا يتزوج الرجل الا من امرأة أجنبية . وكذلك ترى ان الزواج غير المنظم بقى حتى بعد زوال السبب فيه

ولانتهاك عفة الفتاة في كثير من البلدان شبه احتفالات تقام على نسق غريب . فالعادة فى (كامتشاتكا) ان يتم الانتهاك علانية . ومن عادات الصين الى اليوم ان لا يحدث زواج بين سميين

ولما كانت المرأة والولد عند الشعوب الأولى ومن أعقبها من الغابرين ملكا مطلقا للزوج له حق ابقائه وازالته كما ورد في القوانين القديمة ـ خصوصاً قانون الرومان ـ فقد تتضح لنا عمومية قتل الابناء عند جميع الامم القـديمة البربرية منها أو المتحضرة ، فلم يخل مكان من هذه العادة اللهم الا (اسپارطة ورومية) . ولا يزال الصينيون الآن على تقدمهم يقتلون الابناء

وأغلب القتل واقع على البنات ، لانهن لا يصلحن للعمل والحرب . وقد مضى جماعة (الراجبوت) الهنود بالرغم من ذكائهم وشرف اخلاقهم وحضارتهم في عادة قتل البنات حتى اعوزتهم النساء . ولا شك في ان هذه العادة المؤدية

الى قلة النساء انما كانت في جملة الأسباب التي بعثت على تعدد الازواج عند كثير من الشعوب

رأى القارىء من جميع ما سبق ان الاسرة البشرية لم تكن في الأصل ذاك النظام الديني المدني المؤسس على عواطف الوداد الذي ريم ان يُرى اساساً لجميع الجماعات البشرية . وانما هى نتيجة خرجت بعد كثير من التطورات البطيئة . وبعد ان نزلت بها اقصى ضروريات البربرية الاولى الى أحط مما عليه الاسرة عند الحيوانات . ولم تتخلص الاسرة من شكلها الخشن الا قبيل عهد التاريخ ، ومن ثم كمل خلاصها فلم يكن السفاح الاولي بعد ذلك عند أغلب الأمم في الحضارات الأولى الا أثرا بعد عين

لقد تم وجود البنوّة الابوية في أوائل ازمان الحضارة ، واقيمت الاسرة على دعامة السلطة المطلقة للأب وحرمة الاجداد . وتحقق مثل هذا التطور ايضاً عند بعض الشعوب كالآريين الأولين مثلا قبل التاريخ . واذا تدبر الباحث لغة هذا الشعب البائد رأى الروابط العائلية فيها ظاهرة معروفة باسمائها ودرجاتها ، فمن لفظ القرابة الى الأب فالأم فالولد ومن الأخ الى العم الى العمة الى ابن الأخ ، وكلها كالمعروف عندنا الآن

ويدل التطور الذي جرى في معظم شعوب الحضارات الأولى على مرور من الامومة الى الابوة بحيث صارت الوحدة الاجتماعيـة من القبيلة الى رب الاسرة . وسواء كان النظام المتبع في القران اتخاذ الزوجة الواحدة أم تعدد الازواج فالزوج من ثم الرئيس المطلق . وقد كانت سلطته في روما على امرأته سيادة ، وكانت الزوجة أمة لا يلتفت اليها القانون ، ولسيدها حق اعدامها والابقاء عليها ، ولم يعترف لها المشرعون اليونانيون الا بالواجبات التي عليها ولم يذكروا لها شيئاً من الحقوق

وشوهد في أغلب المدنيات الأولى ان رب الاسرة سيد جماعـة قوامها نساؤه واولاده الشرعيون واولاد السفاح والمتبنون والخدم وسائر الاقارب على اختلاف درجاتهم . وخـير مثل تام على ذلك العشيرة عند الرومان فقد

اتسع نطاقها في القرون الوسطى فكانت الدرجة الثانية من درجات التطور

ولا ينبغي ان يعتبر القراء ما مر بهم في هذه الصفحات القليلة بسطا وافياً ، فما هو الا اجمال للقوانين العامة التي وقفنا بها على أصل الأسرة ، ولا ريب في ان الضرورات المحلية تختلف اختلافاً عظيماً باختلاف الشعوب ، وهذا ما أدى الى اختلاف الاشكال الثانوية للتطور ، والى التفاوت في سرعة فعله . ولكن القانون العام هو ان يجد الباحث اينما بحث عادة السفاح العام في البدء وما تتضمن حتما من تفوق الامومة . ثم تعدد الازواج وهو شكل محصور مصغر للسفاح . ثم تعدد الزوجات او اتخاذ الزوجة الواحدة وما يتبعهما من تفوق الامومة وسيادة رب الاسرة بالشكل الذي ظهر لنا في بدء الحضارات الاولى

ونظرة عامة الى جميع ما سبق تعيد الى ذاكراتنا ما وقع من الاختلافات في العادات التابعة للقوانين العامة التى ذكرناها ، فندرك ان الضرورات المحلية هي التى اقتضت عند الشعوب المختلفة كل ما هو مخالف لآرائنا الحالية ، من مثل زواج الاخ من أخته وزواج المتعة والاخلاص الزوجى الذي يتخلله بعض التساهل والزنا المباح الى يوم الزواج فقط لتتمكن المرأة من جمع مهرها كما حدث في اليابان

ومهما اختلفت الاشكال التى كيفت بها القوانين الدينيـة أو المدنية أو العادات روابط الذكران بالاناث فالظاهرة العامة التى يراها الباحث في كل مكان عند متوحشي القرون الأولى أو عند متحضرى اليونان وروما انما هي اعتبار المرأة كشيء امتلك بالحيازة مثل جميع الممتلكات التى تحصل بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل ، فهي عند سيدها كجواده أو أسلحته ، له ان يؤجرها ويقرضها ويبيعها ، وما تحرير المرأة الا من عمل أهل العصر الحاضر ، فلم يخطر ببال الاقدمين انه من الممكنات . كانت المرأة عند اليونان والرومان أمة شرعية لرب الاسرة له عليها الحقوق التى له على ماشيته وعبيده . ولا ننسى ما عامل به (افلاطون) المرأة في أرقى عصور اليونان مدنية فانه قسا عليها كما قسا قانون (مانو) الهندى القديم . وعاب على المشرعين السابقين (مينوس) و(ليكورغ)

اغفال القول بعمومية النساء وأكد في كتابه (الجمهورية) ان الواجب تداول النساء كما تتداول الاشياء

ولم يجد الحكيم (سقراط) أو ذو الفضيلة (كاتون) جناحاً عليهما وخروجاً عن الطبيعة في اقراض الاصدقاء زوجتيهما . واذا استثنينا بعض الفضليات المتمتعات بالحرية والعلم كبعض نساء الهند الآن فان اليونان ـ وهم في العرف ارقى الشعوب القديمة حضارة ـ لم يخرجوا بالمرأة الى أبعد من صف الرقيق . اما مصر فانها البلاد الوحيدة التي ساوت بين المرأة والرجل أو كادت . والخلاصة ان عقد قران الجنسين ـ مهما اختلفت اوضاعه وشمل تعدد الازواج أو الزوجات أو الزوجة الواحدة ـ ما كان الا عقد عبودية للمرأة . واذا اغفلنا الازمنة التي سبقت التاريخ ولم نعدّ الا الخمسين أو الستين من القرون التى قضتها المرأة رازحة تحت هذه العبودية فلسنا نجد بداً من القول بأن طول هذا العهد قد اعتاق ترقى عواطف المرأة وذكائها . وسنعلم في المستقبل ماسيكون من نتيجة مانحاوله اليوم من تحريرها وتعليمها ، وكل ما نقوله الآن ان هذه النتيجة غير قريبة لان الهوة العقلية والادبية التى احتفرتها ـ بين الرجل المتحضر وبين المرأة ـ مضاعفات الوراثة من القدم تحتاج في ردمها الى كثير من القرون

٢

ترقي اللغة

لكل الحيوانات من الحشرة الى الانسان لغة ، نعنى وسيلة تدل بها على تأثراتها وحاجها جهد الطاقة • فذوات اليدين من القردة القريبة الشبه بالانسان ـ حتى عدت أصل البشر ـ تتخاطب بلغة لا تبعد كثيراً عما يتخاطب به كبار القرود الآن . ومن ذا الذي ينكر معرفة القرود كيفية الاتفاق على نهب فاكهة حديقة من الحدائق ، وارسال المستطلعين ، وتلقى الاوامر من القادة . اما انواع الحيوانات العليا ففى وسعها اجادة التعبير عن افكارها الفطرية ورغباتها وحاجها باصوات مختلفة

ولا تقتصر الحيوانات على التفاهم فيما بينها فقط بل تحاول افهامنا ما استطاعت ، والمثل على ذلك الكلاب فقد توصلت الى فهم بعض كلمات من لغتنا . كان عندي كلب صغير من كلاب الصيد التي تبحث عن الطرائد في مخابئها وكان يصغي الي كل الاصغاء اذا ذكرت له السكر واللحم والنزهة خارج المنزل فافهمته هذه الكلمات بالانكليزية والألمانية أيضاً وكنت أعيدها عليه بعد ذلك فيفهم مدلولاتها فاجعله مثلا لسيده الصغير الذي لا يصبر على تعلم اللغات الاجنبية

ولقد عرفنا بامثال هذه الملاحظات في الحيوانات ، وبأمثلة أخرى من المتوحشين سيأتي ذكرها ، ان اللغة لم تخرج عن حكم قانون التطور الساري على جميع مظاهر الحياة المادية والعقلية

تبعت اللغة ترقي الانسانية ، وبقيت دائماً على صلة وثيقة بهذا الترقي ، اومشت بازاء ترقي الأفكار فارتقت وربت وتنخلت معها . وهذا حق جلي يبدو الآن في جماعاتنا المتحضرة . فاللغة التي يتكلم بها شعب فتختلف في افواه المتكلمين باختلاف درجات تهذيبهم فلا تخرج الفاظ المتكلم عن مستوى افكاره وقواه العاقلة . وبينا تسمع للعالم من الالفاظ الآلاف اذا بك لا تسمع للفلاح الا المئات . وليس في الناس من يستطيع القول بانه فهم لغة بلاده وتكلم بها كلها لان اصطلاحات الفنون والعلوم والالفاظ المستعملة في المهن الخاصة لا تتكلم بها الا فرق خاصة . وكلما ازدادت معارف شعب من الشعوب كثرت كلماته وقامت بكفاية حاجه العقلية وتعذرت الاحاطة بها جميعاً على كل فرد فأخذ منها المرء على قدر حاجته وأهمل الباقي أو جهله

ولقد كانت اللغة عند الأوائل ـ الذين لم يرقَ ذكاؤهم كثيراً عن ذكاء الحيوانات ـ مركبة من بعض علامات لاظهار التعجب لا تنطق ، اذ معظمها من الحركات . ولهذه الحركات أهمية عظمى في حديث المتوحشين الحاليين فهي تكمل القول وتعين على التفاهم عند ما يكون المتخاطبون من قبائل مختلفة اللسان

وكلما ارتقت اللغات واغتنت قل لزوم الحركات والاشارات . ولكن ، من ذا الذي تؤاتيه الكلمات بكثرة في اية لغة فيستطيع الدلالة على جميع صور العواطف والافكار من دون الاستعانة بحركة الوجه أو الايدي أو تكييف الصوت . والمشاهد ان الاستهزاء والشك والحنان والغضب قلما يبديها المرء بالالفاظ وحدها بل بصوت اخراجها وبالاشارات الدالة عليها

ومع استخدام الحركة والاشارة تكون اللهجة من ملحقات اللغة ، فتوضح القول اذا كان القول لا يزال ناقص التأليف . ففي الصين مثلا يلفظ المقطع الواحد بخمسة اصوات أو ستة أصوات مختلفة فيدل في كل صوت على مدلول خاص . واللغة الصينية هي اللغة الوحيدة المتحضرة التي بقيت في درجة منحطة من التطور ، ولذا انتفعنا بها وتمكنا من تعرف وجه من وجوه اللغات وكيفية الانتقال منه الى الذي يليه ، وسنبين ذلك فيما يلي . ونبادر الآن الى القول بأن ما اختصت به اللغة الصينية من الحطة يرجع الى سبب اختراع الكتابة هناك قبل ان ترتقي لغة الكلام تمام الترقي . والمعروف ان النتيجة الأولى للكتابة اذا لم تكن الوقوف المطلق باللغة حيث هي فلا أقل من ان تجعل تطورها بعد ذلك بطيئاً

ونجمل مامر فنقول : ان صيحات الحيوانات ، واللغات الفطرية عند بعض المتوحشين ، وعادة هؤلاء في التعبير بالحركات والاشارات مع الكلمات ؛ تدلنا كلها على أن الأوائل تفاهموا قبل اختراع اللغة الناطقة بوسائل نهاية في السذاجة تلتئم مع ما كان من ندرة افكارهم وفطريتها ، فلما شرعوا في استعمال المقاطع كانت طريقتهم في البدء المعارضة والتقليد فكانت لغتهم الأولى ذات مقطع واحد . وانا لنرى ذلك اليوم في الكيفية التي يبتدىء بها الطفل في الكلام ، غير أن الطفل له مزية على أوائل البشر هي سماعه كلمات تامة التأليف من قبل ينطق بها من حوله ، واذا وعت اذنه بسرعة كل ما يقال فلسانه يعجز عن النطق بالمسموع لعدم المران ، فيسمع مثلا مقطعين ولا يتمكن في البدء

الا من اعادة احدها فقط وكثيراً ما يضاعفه فيكون صدى متكرراً للمقطع الأخير ، فتقول له شكولاته مثلا فيقول لاته لاته وهلم جرا . واذا لم يبق على الأرض لغة من ذوات المقطع الواحد فلا شبهة في ان مثل الطفل يدلنا على أن أول وجه من وجوه اللغة البشرية كان كذلك. وسنرى أيضاً ان هذه المقاطع كانت كلها تقليدية ، وما يخترعه الطفل منها ـ لا ما يتعلمه ـ هو من هذا القبيل ، فاذا اردنا افهامه فدعونا له الكلب باسم « واوا » أو الطير باسم « كوى كوى » فظاهر اننا افهمناه بما سبق اليه اختراعه

ولا يزال في لغاتنا الجميلة المتنخلة كثير من آثار هذه الاصطلاحات الأولية مثل « طق » لصوت وقع الحجر و« زقزق » لصوت العصافير وما جرى هذا المجرى ، وكلها جاءت بطريق المحاكاة

أما اللغة الصينية التي ذكرناها فيما سبق فقد ظلت على وجهها الأول الوحيدي المقطع ، فكلماتها الاساسية وعدتها خمسمئة هي خمسمئة مقطع . وبتنويع الأصوات يسد الصينيون النقص في لغتهم الفقيرة فينطقون كل مقطع بخمسة أو ستة من الأصوات المختلفة ، وهذا ما جعل لغتهم من أصعب اللغات على الأجانب

وجاء بعد المقطع الواحد التئام المقاطع وجمعها لتأليف كلمات جديدة بل جمل بأكملها مع الاحتفاظ بالمعنى الخاص لكل كلمة . واليابانية والتركية واللغات الاسترالية والامريكية لا تزال في دور التئام المقاطع

ويتبع هذا الدور دور تغيير شكل الكلمة الواحدة ، فتمازج المقاطع مع حذف بعض الأحرف أو نقص يخرجها عن طبيعتها . وكثير من هذه الكلمات لا يستعمل الآن الا مزيداً في أول اللفظ أو ملحقاً به في آخره ، وقد فقد معناه الأصلي بالاضافة الى اللفظ الذي جرد . ويتفق احياناً أن يحول هذا المجرد عن معناه الاولى فيبعد مجموع اللفظة المركبة عن المراد أو المعنى الأساسي لكل جزء من اجزائها ، وكل لغات الشعوب المتحضرة من

الجنس الهندي الأوربي لغات تمازج وحذف كاليونانية واللاتينية والاسپانية والايطالية والانكليزية والألمانية

ولم تصل أية لغة من اللغات المذكورة الى حالها الراقية الحالية من أول وهلة ، اذ كلها مشتقة من لغة أساسية هى الآرية التي لابد أنها استمدت من لغات مجهولة أقل منها • ولا يستطاع تعيين الوقت الذي وجدت فيه أية لغة ، ولا تاريخ بدء التكلم بها

قال مسيو (براشيه) اللغوى الضليع : « ان مسافة الخلف بين لاتينية الفلاح الروماني وفرنسية (ڤولتير) تبدو للناظر عظيمة الانفراج ، ولكن التحولات الدقيقة التى توالت ازمانا طويلة هي التى ادت الى تولد الفرنسية من اللاتينية

ولا تعزى فرنسية (ڤولتير) الى لاتينية الفلاح الروماني فقط بل الى آرية سهول آسيا العليا والى اللغة الوحيدة المقطع التى استعملها بعض اجناس البشر والى الأصوات الحلقية لأوائل الناس وصياح الحيوانات ، وكل هذه منابع خرجت منها اللغة بتحولات وتغييرات غاية في الدقة وقعت في ازمان نهاية في الطول » اه

ولا شيء يسرع اليه الفساد كاللغة عند ما تكون الكتابة مجهولة أوقليلة الاستعمال عند من يتكلمون ، وتغير اللغات المحلية بالقرى في البلاد الجاهلة مثل يساق علي ما نقول

وقد كان العامل الهامّ الذي كشف لنا عن التاريخ والمدنية ما بقى من كتابات الأقدمين في الكتب أو على الأحجار • فقلنا ـ قبل ان نحل رموز هذه الكتابات ـ ان لغات من تركوها لابد أن تكون راقية أو كانت متمشية في دور التكوين عند ما شرعوا ينقشون احرفها على الغرانيت • وكان قولنا هذا في محله فقد اتضح ان للغة المكتوبة ـ كما للغة الكلام ـ ادوارها الخاصة . فكانت الكتابة في أول الأمر تقليد الأشياء الخارجية مثلما

قلدت لغة الكلام الاصوات والصيحات • وبهذا الاعتبار نقول ان صور الدباب والوعول التى وجدت على عظام الأفيال البائدة (ماموث) في عهد الحجر المقطوع يصح ان تعد - على سذاجتها ونقصها - امثلة اولية فطرية للكتابة كما عدت المعارضات الصامتة للمتوحشين امثلة أولية للكلام

وكانت الكتابة في أول أمرها تمثيلاً لاطراف الاشياء ، ثم اختصرت الخطوط فانتجت صوراً قريبة من أصولها قرباً ما ، فكان هذا الهيرو غليفي . ثم ميزت بعض الأشياء التي تلفظ اسماؤها تلفظاً خاصاً ببعض العلامات فانتهى الأمر الى تغلب العلامة المميزة لصوت الكلمة على مدلولها في الاعتبار فكانت الكتابة الصوتية • ولم يستعملها القوم أولا الا في كتابة الكلمات المجردة العامة المستحيلة التمثيل بصور أو بما يشبهها • وكذلك كتبوا الأفعال والصفات الادبية أوالضمائر بالكتابة الصوتية بين الاسماء المشتركة المدلول عليها بما يشبهها وكانت هذه كتابة مصر في أول زمن التاريخ

ثم حدث أخيراً ان حلت الاصوات الى عناصرها الأولية ، واشير الى كل عنصر منها بعلامة ، ومن تركيب هذه العلامات تألفت الكلمات . وهذه هي الكتابة الحرفية (الف بائية) التي اخترعها الفينيقيون

ونجمل ما مر فنقول ان ادوار الكتابة ثلاثة : دور تصوير الفكرة ، ودور تصوير الصوت ، ودور التصوير بالأحرف . واذا لم تطابق هذه الأدوار في كل مكان ادوار نشوء اللغة وترقيها ، من المقطع الواحد الى تكوين الكلمات والجمل وبلوغ الغاية التي وصلت اليها من المرونة ، فلا أقل من أن تدل على فعل قانون التطور في الكتابة كما في اللغة

ولا يعد أي شعب من الشعوب في مستوى راق من الحضارة الا اذا كان نهض بلغة القول ولغة الكتابة عنده الى درجة عالية من الرقي . وعلى هذا نقول : ان وصول البشر الى ما نرى من المقول والمكتوب بعد ازمان طويلة تقضت في جهود بالغة من شأنه ان يشهد باستمرار تدرج الانسانية في معارج الاتقان ، وهذا ما يجعلنا نحترم الماضي ونزداد أملاً في المستقبل

يتبين أيضاً مما سبق ان اللغة من خير عناصر الاعانة على فهم حال الحضارة عند الشعوب. ولا يعترض بأن هناك امماً تركت لغتها الأصلية واتخذت لغة تخالفها، وبأن لغة الغالب تخالط لغة المغلوب بعد الفتح وتنتهي احداهما باستغراق الأخرى؛ فهذا وان صح لاينقض نظريتنا بل يعززها ويؤكدها. اذ المعروف عن لغة أي شعب انها الدليل على درجة تطوره فلا يتركها الى اخرى الا اذا غير وبدل في اللغة الجديدة. وهذا ماوقع دائماً فاللاتينية انست الغوليين لغتهم السلتية أو القالتية القديمة ولكن اللاتينية التي تكلموا بها بعيد الفتح لم تماثل قط لاتينية (فرجيل) و(هوارس). ومن يقارن بين نص يمين (استراسبورغ) وهو من اللاتينية الفاسدة التي كانت لاحفاد (شرلمان) وبين نص خطبة من خطب (شيشرون) يلاحظ ان الأول اثر خشن لعهد بربري أما الثاني فثمرة يانعة لحضارة راقية وذوق أدبي سليم وتهذيب عقلي بالغ. وما تكلم القوم على (السين) بلغة تماثل لغة ذلك الخطيب المشهور الا بعد مرور مئات من السنين وظهور كتاب عصر (لويس الرابع عشر) نعني في جيل بلغ التطور فيه من الوجهة الادبية والعقلية مبلغ ما كان عند معاصري (اغسطوس)

ولم يأخذ الغوليون من اللغة اللاتينية الا ماوافق افكارهم وكيفية شعورهم وفهمهم ثم كيفوه على ما ارادوا، وهذا ما يحدث دائما كلما اخذ شعب لغة غيره وترك لغته فيغير العرض ويبقى الجوهر كالثوب تبدل زيه وبقى قماشه

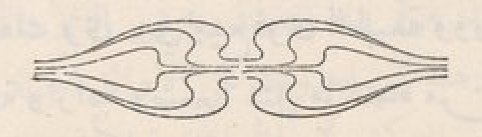
واذا تعارض جنسان ولغتان ساد أبعدهما شوطا في التقدم، ولكن المنحط لايأخذ لغة الرفيع على حالها كما قدمنا، بل ينزلها عند حد حاجه ودرجة تطوره العقلي. وكذلك فعل غلاظ رجال الشمال اذ هبطوا (نورمنديا) فاتحين فقد أخذوا لغة المغلوبين لرفعتها ولكنهم غيروا فيها على مقتضى حاجهم

واذا كان الجنسان المتعارضان على درجة واحدة من التطور امتزجت لغتاهما وبهذه الكيفية تولدت الهندستانية اللغة العامة الحقيقية للهند الآن

ولم يمض على تولدها نحو ثلاثة قرون، وقوام هذه اللغة مزيج من اللغة المشتقة من السنسكريتية لسان شمال الهند في زمن اغارة المغول ومن الفارسية التي دخلها بعض الكلمات العربية من لغة الفاتحين

ولا تقتصر الشعوب على تغيير اللغات التي تأخذها عن غيرها بل تعدل في لغتها أيضاً على توالي الايام لان اللغة تتبع التطور العقلي دائماً كما تدل عليه، وكلما ترقت الافكار تنخلت اللغة فيخترع أهلها كلمات جديدة للمبادىء الجديدة ويهتدون الى الاساليب الشائقة للتعبير عن أدق العواطف، فاذا سادهم التصور أوجدوا كثيراً من الصيغ الشعرية والتشبيهات الرائقة. واذا اجتذبهم العلم أكثروا من الاصطلاحات العلمية والفنية. واذا كان نصيبهم العقل المجد المدقق تكاثفت جملهم. واذا كانوا من اولى الدعة والذهاب مع الاحلام أطالوا الجمل الرخوة على مناحي عديدة مختلفة. فالفرنسية مثلا - وهي اللغة الواضحة الطلية المحبوكة الاطراف - تدل على ان العبقرية عندنا أقل في غورها منها في اشراقها، فهي مأخوذة بالجلاء، ولوع بالبساطة. وتدل الالمانية - بكلماتها الطويلة وجملها المديدة واصطلاحاتها الغامضة - على الروح الجرماني الممتلىء بالمطامح المختلفة فهو متلبد ثقيل. اما القيود التي ترمي دائما الى حصر الاساليب الانكليزية فهي الشهادة للانكليز بان عبقريتهم جدية عملية، وبأن شعبهم قد دان بالحقيقة القائلة « ان الوقت من فضة »

ونختم كلامنا هنا بان اللغة مرآة أفكار اهلها ومقياس تقدمهم، وان كل شعب لا يأخذ منها الا ما التأم مع حاجه، وان اللغات تستخدم في تدوين وجوه تطورنا البشري البطيء في مختلف العصور



الفصل الرابع

﴿ نشوء المعتقدات والقانون والاخلاق وترقيها ﴾

١

ترقي المعتقدات

أنار تقدم العلم الحديث سبيلنا الى معرفة أصول المعتقدات والحاجة الى التدين ، وهي تلك العاطفة الخفية التي نجدها عند أغلب الامم ويعتبرها المتدينون وحيا داخلياً يسبق وحي المعجزات الذي جاء به الانبياء

ولقد هدمت الاستكشافات الحديثة في علم النفس المقارن هذا الاعتبار فلا يمكن عد المعتقدات اليوم الا كثمرة طبعية من ثمار مخ الانسان وقلبه ، فهي تنشأ وتترقى فيه وتنضج كسائر الافكار والعواطف . ومن السهل الصعود الى اصلها وادراك خضوعها لقوانين التطور ، اسوة بجميع مظاهر العقل الانساني

والظاهر ان الاصل في التدين عاطفتان غاية في السذاجة ، هما الخوف والرجاء بهذا الترتيب

أما الخوف فبعثته في نفوس الاوائل مخاطر الطبيعة الرهيبة والرغبة في الاحتفاظ بالنفس، فلم يجد لتلطيفه وتنظيمه الا ذكاء غاية في النقص لان ترابط الافكار او ائتلافها لم يكن قد تم يومئذ الا بكيفية سقيمة على قاعدة التشابه ، فيقول المتوحش في نفسه مثلا « اضرمت النار في كوخ عدوي لاني أمقته ، وأضرمت الصاعقة النار في كوخي فهي اذن تمقتني » وعلى هذا النحو كان الانسان الاولي لاينفك يرى – في جميع قوى الطبيعة ووراء كل الاعمال الطيبة أو الهائلة – شخصية وارادة وضميراً مثل ما عنده من الشخصية الخاصة والارادة الذاتية من حيث كونه عاملا شاعراً

ولم يكن الانسان يدرك الفرق بين الكيان الحي وغير الحي، فكل ما يتحرك امامه فهو حي وعلى ذلك فهو مريد. فالشمس التي تشرق وتقطع السماء وتغرب، والريح التي تهب، والرعد القاصف، والبحر الحامل للفلك، كلها في عرفه شبيهة به في غدوه ورواحه ونومه وبطشه، الا أنها أقوى منه، فهي تلعب بحياته فلا بد – في اتقاء غضب هذه القوى الهائلة – من تقديم القرابين ورفع الدعوات ما دام يستشعر السلامة والراحة في اللياذ بمثل هذه الوسائل

ثم أقنعته الرؤى التي رآها في احلامه بوجود كائنات غير منظورة لا اجساد لها تغشى الانسان في بعض الاحيان. فاذا وقع أى حادث من خير أو شر مطابقا لوقت الرؤيا اقتنع بان للارواح ايضا الاثر والنفوذ في وجوده ولا مفر من ذلك

ولا نزال نرى في العقول المنحطة الى الآن مثل هذا الضرب من ترابط الافكار كتيمن اللاعب وتفاؤله والاعتقاد بالاحلام والخوف من يوم الجمعة والتشاؤم من عدد ١٣ . وكلها تشبه خزعبلات المتوحشين . ومما يذكر ان بعض العبقريين شاطروا العامة هذه الاوهام فكان كثير من عظماء الرجال يصدق بوجود نجم له خاص به

ان الخوف وعاطفة التبعية والرجاء وفطرية ترابط الافكار هى الاصل اذن في عاطفة الاعتقاد والسبب في وجود الآلهة الاولى. ولما كانت هذه العواطف موجودة أيضاً عند الحيوانات فقد أدت الى عين النتائج السالفة الذكر، فالكلب يتوقع من سيده كل شيء فيخشاه ويخدمه ويرجوه ويتملقه، كما يفعل المتوحش أمام صنمه، الا ان الكلب يضيف الى خضوعه هذا عاطفة الحب، وهي أشرف من عاطفة الرعب عند عبدة الاصنام واقرب الى العبادة الخالصة التي اختصت بها الشعوب المتحضرة معبوداتها بعد ذلك

ولم يهتد الاوائل بعقولهم الى الآلهة المميزة بذواتها، فالمتوحشون الذين رأوا البندقية في أول مرة وما تقذف به من النار والموت جثوا امامها. وهذا مادل على ان الرهبة التي استولت على الاوائل الجهلة – من سطوة القوى الخارقة للعادة – قادتهم الى كثير من الخرافات قبل أن يستطيعوا ادراك ذوات مميزة اوجدتهم وسادتهم واستحقت عبادتهم. ومعنى هذا ان عاطفة التدين

جاءت في العالم قبل الآلهة ، والبرهان ماتراه عند المتوحشين المنحطين الذين لم تدر بخلدهم فكرة الالوهية مع أنهم من أشد المخلوقات ذهابا مع الخرافات وباطل المعتقدات . وفي استراليا وأفريقية قبائل لا تعرف الها ولها اعتقاد ثابت بالارواح والطلاسم وشرور قوى الطبيعة

هكذا كان مبدأ المعتقدات ، فلا يوصف بعد ذلك بانه وليد الطموح الى اللانهاية ، او ابن الحاجة الى ايضاح ظاهرات الطبيعة ووجود العالم ؛ فلم يكن الاول ليعرف هذه المطامح ، ولا كان بحيث يجد من نفسه دافعاً الى هذا الاطلاع ، ومثله في ذلك الطفل فهو شبيهه من كل وجه

ومما يذكر أن الفلاح — القريب من المتوحش بجهله وسرعة تصديقه — لم يتحرك قط لجمال الطبيعة ، ويدهشه اعجاب أهل المدن بجبله وغابه ، ولم يتساءل قط كيف خرجت السنبلة من الحبة ، ولماذا تنتج البذرة شجرة البلوط

ان الصفة المميزة للجهل المطلق هي عدم الدهشة ، وعدم التفكير في الصعود الى الاسباب . والطبيعة الاولى لا تبحث عن ايضاح الظاهرات . اما العجز عن الدهشة من أغرب الامور فمسألة لاحظها السياح . ومن ذلك أني كنت بمصر وكان معي احد زعانف السوريين لم ير فيما عاش قطاراً حديدياً فادنيته من الطريق الحديدية ولم أخبره بما سيرى . وبعد قليل علا في الجو صفير الادهم الحديدي ثم مر كالبرق الخاطف . وكنت انتظر من صاحبي السوري دهشة مما رأى فلم يبد على وجهه شيء ومازاد بعد قليل من التفكير عن قوله « الله اكبر »

ولقد جرت العادة باكبار أسئلة الاطفال ولكن الطفل لا يلقي اسئلته الكثيرة ألا ليشغلك بنفسه . اما هذا العالم الجم الشئون المتلىء بالاعاجيب فانه لا يبعث فيه أية دهشة أو أي تعجب . ومن هو ذاك الطفل الذي تأثر برؤية الجبال او بجمال غروب الشمس ! ان الانسان الأول لا يختلف عن الطفل بهذا الصدد في شيء ، فقد يمكن ان ترعبه الظواهر الكونية ولكنها لا تدهشه ، ولا تسمح له عقليته بالتفكير في تتبع أسبابها ، ولم يصل العقل الى ما وصل اليه عند (نيوتن) — اذ تساءل عن سبب سقوط التفاحة الى الارض ،

واهتدى الى انه القوة التي تحرك العوالم — الا بعد ان قطع شوطا بعيدا في مضمار التقدم . وليست الاجابة بان التفاحة سقطت الى الارض بارادة عليا من الاجوبة التي تعد مجيئاً للمسبب المنظور بالسبب . على ان بعض العقول المستنيرة اكتفت زمناً طويلا بهذه الاجابة بعد أن كانت العقول التي تقدمتها لا تكلف نفسها عناء التساؤل . فبني على هذا ان الناس عاشوا قروناً طويلة كالاطفال او كصقور الغابات يطالعون الشمس في كل يوم ولا يتساءلون قط عن القوة التي أصعدتها الافق في الصباح وهوت بها الى الغروب في المساء

ترجع أصول المعتقدات كلها الى ثلاثة ضروب اعتيد اعتبارها الادوار الثلاثة المنظمة لتطور الدين : فالضرب الاول الوثنية، والثاني الشرك او تعدد الآلهة ، والثالث التوحيد . وليست الفروق بين الديانات المنطوية تحت هذه الضروب من الوضوح بحيث يمكن الاستدلال بها على ارتفاعها وضعتها تبعا لمراسمها وشعائرها ، غير أن الترتيب الذي ذكرناه لايخلو من صحة ودلالة على امكنتها من الرقى

وترتكز جميع المعتقدات من ادناها الى أرقاها على مبدأ الروحانية نعني على ما يرمي اليه الناس من اعتقاد الحياة في كل ما خرج عن دائرتهم فيعزون الى جميع الاشياء حياة على وفق تصورهم ، مع ما يتبعها من الاعمال والحاج والرغبات والشهوات . وكلما زاد عدد الاشياء التى تشملها الروحانية المذكورة زادت ماديتها . وكلما تعددت الآلهة كانت الديانة من نوع الديانات الاولى . فالمتوحش كما ذكرنا ماانفك يعزو مثل أفكاره وعواطفه وارادته الى الاحجار وقطع الاخشاب والاشجار والحيوانات ، وهذا ما عنيناه بقولنا « وثنية »

ثم استنار العقل البشري بعد ذلك بعض الاستنارة فحصر حدود الروحانية فارتقت ، ولم يعد الناس يؤلهون الا القوى الكبرى في الكون ويتصورون وراء كل منها كيانا ، ذاتا غير منظورة ، ترأسها وتتصرف فيها . وهذا ماعنيناه بقولنا « الشرك اوتعدد الآلهة » وفي الاساطير ان (ابولون) كان

يرشد الشمس في سيرها و(شرش) ينضج الحاصلات وتحت الآلهة الكبرى آلهة ثانوية للرياح والينابيع والغابات. وهناك بعض الالهة مثل (جوبتر) له الارادة العليا الشاملة، يتفوق على نظرائه ويشرف عليهم ويستغرقهم. وكذلك تتمشى الديانة شيئاً فشيئاً الى التوحيد. حتى اذا لم يعد يرى الانسان خارج الوجود الا الها واحدا قديراً خالقاً متصرفا في الخلق محجوبا عن عباده أبدياً لا يتغير فهناك يصح القول بانه وصل الى أرقى ما أوصلت اليه الفكرة الاساسية العامة الباطلة نعني فكرة الروحانية التي سلف ذكرها. الا ان الانسان لم يسلم من الخطأ فالاله الذي يتصوره لا يختلف عنه في شيء من حيث ميوله وغضباته وغيراته الخ وكل ميزة هذا الاله انما هي قدرته وابديته فقط (هذا رأي المؤلف)

ونذكر عبادة الموتى التي انتشرت منذ نشوء الجماعات البشرية وكانت اساسا لاغلب الاديان فنقول: انها ليست الا صورة اخرى من الروحانية. اذ من الطبعي أن نعتبر الارواح التي لابست الاجسام وقاسمتنا العيش ونعرف لها قيمتها ونتصورها مثلنا سواء بسواء، ولو قيل انها ميزت بعد مفارقة الاجسام بقوة كبرى واختصت بالرقي في الجو وميزة الانتقال الى كل مكان والظهور للناس في الاحلام

وعند ما يعتبر المرء الروحانية منبعا لجميع الديانات يسهل عليه فهم اختلافاتها بحسب الشعب الذي يدين بها بل بحسب الفرد الجاري على سننها. فالانسان كما قلنا أوجد آلهة على ما تصور بخلاف ما قيل في الانجيل

ولقد كانت هذه الآلهة قاسية سفاكة للدماء أيام كانت القوة الفظة هي المتحكمة فى الارض. ثم تلطفت قسوة الآلهة بعد ذلك، ولكن بقي فيها ما بقي في قلوب الناس من عدم التسامح فأرحم الآلهة لا يرحم عدوه. ولقد استأصل (نيرون) و(دومتيان) شأفة المسيحيين باسم (جوبتر) فاشعل المسيحيون - بعد ذلك بمدة - نار محكمة التفتيش وذبحوا اخوانهم باسم الاههم اله المحبه

ومن الروحانية - التى تجعل الاله شبيهاً بمن يعبده - نفهم أيضاً كيف

تصوغ الشعوب أديانها على ما ترى . وندرك أن الحكم على تطور ديانة أي جنس ـ بناء على اسم هذه الديانة ـ من الاحكام الباطلة ، ففي كل ديانة كبرى من الاديان الحاضرة يستطاع تلمس الادوار الثلاثة للتطور ، من وثنية وشرك وتوحيد ، كما يوجد المتوحش والمتبربر تحت طبقة المتحضر في كل شعب ، وكما يوجد المقطع الواحد والاشكال الاولى للغة في كل من لغاتنا الحاضرة

وهناك فرق بين مسيحية فيلسوف مثل (بسكال) ، وبين مسيحية روسى تقي يشعل مصباحه امام الصور المقدسة ، وبين مسيحية قروي ايطالى يصلى لعذراء قريته ويسب عذراء القرية المجاورة ، كالفرق بين التوحيد المحض ووثنية التوحش وشرك الاقدمين . ان التقي الروسي يعبد صوره المنحوتة كما يعبد انسان (ملجاش) الاهه المسمى (جرى جرى) والايطالي شبيه باجداده الرومانيين الذين كان عندهم من آلهة (جوبتر) و (جونون) بعدد ما كان لهم من المدن والمعابد . ولهذا السبب لا يمكن اعتبار الديانات المعزو اليها التوحيد كاليهودية وغيرها كمثال اتم للتطور الديني ، فقيمتها تقاس بقيمة الشعب الذي يدين بها واحيانا بقيمة الفرد الخاضع لاحكامها

وبما أن الوحدانية هي منبع الامانى التى سرّت الانسانية وعزتها وسيرتها في طفولتها وشبابها قروناً طويلة باسم الاديان فبديهي انها اذا زالت بعد بلوغ دورها الاخير ـ وهو التوحيد ـ عدّ هذا الزوال خطوة اخرى فريدة فى سبيل فوز العقل المحض . وبهذا الاعتبار تكون الوهية الكون التي لا تقول بذات الهية خارجة عن العالم ، والبوذية الجحودية للفلاسفة الهندوس ، منتهى التعاليم الدينية السامية التي اتيح للناس الوصول اليها . غير أن هذا لا يصح الا نظراً فقط ، اما في العمل والواقع فانك ترى جماهير المعتقدين المتدينين لا يرون في الوهية الكون الا وثنية غامضة ، ولا في البوذية المتساهلة في قبول جميع الآلهة الا شركا لم يعهد مثله في سائر الاديان . والمعلوم أيضاً أن البوذية بنقلها الى الصين واليابان قد جمعت حولها الملايين من التابعين يسجدون أمام أسخف الاصنام ولا يأخذون شيئاً من معتقداتهم عن كتب

الفلاسفة البوذيين الهندوس

ولقد أدرك رجال الدين الشرقيون اذ كل ما يطرأ على المباديء الراقية انما يتسرب اليها من تدخل الطبقات الجاهلة في أمرها ، فلم يكشفوا للجماهير عن سر فلسفتهم المؤلهة للكون أو الجاحدة به ، لان الجماهير لا تفهمها واذا اطلعتها بذهنها الضعيف خولت انفسها استقلالا ادبيا تسيء استعماله فيعود عليها بالضرر ولذا أمرها الكهنة بعبادة الآلهة الماثلة أمامها وهم يعلمون بطلان أمرها . أما الذين أدرك الكهان كفاءتهم فقد أطالوا عليهم الامتحان قبل أن كشفوا لهم عنها . ومما يذكر أن المبتدئين فى تلقي العلوم الدينية ما كانوا يسلكون فى التلمذة الا بعد اعداد طويل ، لان الذهن السيء العدة لا يستوعب مذاهب الدين ، فلا بد من الطواف به على جميع وجوه التطور الديني شيئاً فشيئاً ، ولا يستلزم هذا الا بضع سنوات عند الفرد ، وان استلزم قرونا عند أي شعب من الشعوب

ان العقل الشرقى أصلح من عقلنا فى فهم قانون التطور ، فقد علم هذا القانون الاسمى على ضفاف (الكنج) وقت أن كانت أوربا مجروفة في تيار الاعاجيب وفاسد المعتقدات وكان الامر كذلك على ضفاف (النيل) أيضاً . وسنرى فيما يلى كيف سارت الوثنية العامة بجانب فلسفة بضعة من المفكرين وكما وجدت بعد ذلك الوثنية المنحطة عند زعانف اليونان بجوار النظريات السامية التي قال بها (سقراط) أو (أفلاطون)

ولا ننكر أن بعض العقول السامية ارتفع فى أوائل زمن التاريخ الى معقولات غاية في السمو بشأن الكون والروح والآلهه ، ولكن هذا الارتفاع في حكم النادر الشاذ أما مجموع الناس فلم يكد يصل الى التوحيد الا لماما . وما كان توحيد العبرانيين نفسه الا مشوبا بالشرك (تعدد الآلهة) . والاصل العام فى معظم المعتقدات الدينية كان عبادة قوى الكون مشخصة فى ذوات ، وعبادة الموتى . وكل أساطير الاولين صادرة من احد هذين المنبعين أو منهما معا على الاغلب . ولقد ترتقى الديانة تبعاً لمستوى عقل الشعب الذي

يدين بها فتبلغ حد الشرك المحصور أو تبقى في وثنية غليظة ، ولا بد في الحالين ان يسودها نظام التضحية

وتولد هذا النظام من الحاجة الى تسكين الآلهة – التي كان يقال انها لا يهدأ لها غضب – اذ الطبيعة تضر بثورتها اكثر مما تنفع ، ثم من الرغبة في رضاء أرواح الموتى اذ المفترض وقتها أن الناس اذا فارقوا هذه الحياة احتاجوا في مقامهم الجديد الى متاع كالذي كان لهم في الحياة ، فكان القوم يحيطون سكان القبور بكل ما كان يروقهم في الحياة ، من مثل الاطعمة اللذيذة والاسلحة النفيسه والحيوانات المعززة والنساء والعبيد . واذا كان الموتى من الملوك ازجيت اليهم مواكب الحراس والعسكر . ولكن هذه الذوات المحبوبة المرهوبة التي الهتها الخرافات انما كانت كالظلال الزائلة ، ولذا لم تكن القرابين تقدم اليها الا اثراً بعد عين ، فتدفن مع الموتى أو تحرق معها . اما الحيوانات والنساء والعبيد فتذبح على القبر

ولقد عمر نظام تقديم الضحايا طويلا ، ولم تسلم منه بعض الشعوب المتحضرة ، اذ كان معمولا به في عهد امبراطرة الرومان

روى (هوميروس) ان (اشيل) ذبح من جنود (توادة) على روح (بطروقل) . وترى في الهند الى اليوم ان النساء اللائي يضحين بانفسهن فيحرقن مع ازواجهن يعتقدن انهن ذاهبات الى خدمة هؤلاء الازواج والعناية بهم في الحياة الاخرى

وشوهد ان عبادة الموتى عريقة في الانسان . وانها من أشد العقائد تأثيرا في النفوس . وكان اساسها في البدء الخوف . ثم اعتقد الناس من الاحلام ان ارواح الموتى تحلق فوقهم لمعاكستهم ، خصوصا اذا لم تنل حظها اللائق بها في القبور . اما نحن الذين لانعتقد بالخيالات فلا اقل من ان نرى الرابطة الوثيقة الخالدة التي تربط الاجيال الحاضرة بالماضية وبالتي لم تجيء بعد ، ونسمع في اعماق نفوسنا اصوات الاموات تملي علينا مانعمله . ولا بدع فتقدمنا انما هو نتيجة الجهود الطويلة التي بذلها اجدادنا ، ولذا فلا نستغرب

الالهام الخفي الذي دعا المتوحش القديم وفيلسوف العصر الحاضر الى اداء الاحترام للقبور في كل زمان ومكان

وسنعود في تفصيلنا للاديان القديمة الى الكلام عن عبادة الاجداد لانها اساس المعتقدات . ولا يخفى ان عالم الاساطير الدينية لانهاية له ، ولم نتوصل نحن الا الى بسط مجمل ذلك الاصل الخفي المثبوت في الطبيعة البشرية

ويختلف عالم الاماني باختلاف الشعوب وافكارها ولا سبيل الى الالمام بروح جنس من الاجناس الا بالتعمق في درس معقولاته الدينية ، ومعرفة الوجهة والسمو اللذين جعلهما قبلة لخالد الرجاء ، والرهبة والحب والبقاء

٢

ترقي الاخلاق والقانون

لم يولد الدستور الادبي الاخلاقي معنا كما لم تولد العاطفة الدينية ، فاذا وجد هذا الدستور فانما كان وجوده بعد ان غرسته في نفوسنا الوراثة في قرون طويلة

ويختلف هذا الدستور عند اجناس البشر كما تختلف اللغات والاديان وسائر الانظمة ، ولاوجود لدستور ادبي عام شامل في العالم ، بل فيه اخلاق محلية وقتية . وصحيح ماقاله (پسكال) من ان النشل وغشيان المحرمات من الاقارب وقتل الاولاد والآباء كان لها مكانها بين الاعمال الفاضلة ، وسنرى ذلك اثناء التغلغل في تفصيلات العادات في الحضارة العتيقة ، ونلاحظ وجود اعمال تخالف ما عندنا الآن كل المخالفة ونلتقي بامور غاية في الغرابة كان يقرها ويوافق عليها الدستور الاخلاقي . ولما كان الواجب علينا عدم الخروج عن الانصاف الفلسفي واجتناب التحيز واطراح المدح والذم فانا نضع انفسنا امام الضمير البشري ونقنعها بانه ـ كالذكاء وجميع القوى الاخرى ـ خاضع لقانون التطور

وهناك مسألة من اكبر المسائل خطورة اراد بعض العقول الكبيرة حلها على خلاف مايوحي به العلم استسلاما لما قوي على النفس من فاسد الاحكام

والخزعبلات فزعم (كنت) و (كوندورسيه) و (بوكل) وغيرهم ان الدستور الاخلاقي لكل الشعوب واحد لايتغير على مدى العصور

ومن الصعب على الانسان ان يدرك السبب الذي حدا ببعض الفلاسفة الى توكيد مثل هذا الشان . ولاشبهة فى ان (پسكال) كان ثاقب الذهن اذ قال ان الصواب في سفح من جبال البرينات (البرانس) خطأ في السفح الآخر . ولنضرب للقاريء مثلا بعادة كادت تكون عامة عند الشعوب المتوحشة واوائل البشر وهي عادة قتل الشيوخ بزعم تخليصهم من عجز الشيخوخة ، والحقيقة ان قتلهم انما هو للتخلص من اطعام من لافائدة منه . ولم يكن يخطر على بال من اتوا هذه العادة ان فيها اي شيء من الاجرام . لا بل كانت الديانة تأمر بها وتقام لاعدام القريب المسن الحفلات وتختم بالمآدب . اما الآن فالعادة المذكورة عند جماعاتنا المتحضرة جريمة من الجرائم العظمى ، وندر ماتقع ، وان وقعت قوبلت بالسخط والمقت من القاصي والداني ، حتى ان مشرعي الوقت الحاضر لم يحتاجوا الى مكافحتها بقانون خاص يسن لذلك . وفى قوانيننا الآن ما يأمر الاولاد باعالة اقاربهم عند العجز عن الكسب ، وهو قانون ينفذه الجميع تنفيذاً معظمه بالرضي والاختيار

وتكاليف الاخلاق قوية فيها مايدعو الى سفك الدماء واتيان المنكرات ، فمن ذلك ان الاستراليين يتصورون انه لابد من الانتقام للميت لتبقى روحه فى طمأنينة

حكى الدكتور (لاندري) ان استرالياً فقد امرأته فاعتزم الذهاب الى احدى القبائل البعيدة ليقتل منها امرأة على روح امرأته ، فهدده الاوربيون الذين فطنوا لمراده بالسجن فتردد وبقي يكافح نفسه اشد كفاح ويتكبد آلام وخز الضمير على جبنه عن الانتقام لروح زوجته ، ولما عيل صبره انطلق فنفذ ما اعتزمه وعاد مبتهجا راضياً كمن اخلص في اداء واجب عيني

ولقد يعجب المرء بالطريق الذي سلكته الانسانية للوصول الى دستور اخلاقي يخالف ما كانت عليه في اوائل امرها ، لان الدستور الاولى مدعم مقوى

بالوراثة والاقدمية واوامر الدين ، فلزم ان تكون العوامل الاخرى التي أخضعته غاية في القوة بحيث قلبته وعدلته كل التعديل

ولم يكن انصار المبدأ القائل بالدستور الاخلاقي العام يحارون اذا عرضت عليهم امثلة من نوع ماذكرنا فقد كانوا يكتفون قولا بانها من امثلة المتوحشين ويحقرونها ؛ فيخيل الى المرء ان هناك هوة عميقة تفصل بين الاجناس المتوحشة واهل الحضارة . اما اليوم ـ وقددل العلم على ترابط الطرفين بدرجات دقيقة وارتباطهما معا بالحيوانات ـ فمهمة الفيلسوف والمؤرخ تدعو الى استكشاف اسباب الترابط وسيرها وتفهمها في الدستور الاخلاقي ، ككل مااختص به الانسان .

وعوامل الدستور الاخلاقي غاية في الكثرة . منها مايتبع اخص الامور النفسية الدقيقة فيعمل في بواطن النفس اعمالا تتفاوت قوة وتختلف نفوذا في العوامل الاخرى تبعا للامكنة . وعلى هذا نقول ان تتبع التطور الاخلاقي للبشر غاية في الصعوبة ، بل لايزال ايضاحه التام متعسرا لجدة علومنا التجريبية ونقصها ، فلا محيص اذن من قصر الدلالة على المميزات الكبرى فحسب

وينبغي ان نقطع النظر عن النفوذ الديني الذي جرى الوهم قديما بانه شديد الأثر في الاخلاق . وهو في الحقيقة ضعيف ولايعد الا في مرتبة ثانويه بحيث لايصح ان تزجى العاطفة الدينية والشعور الاخلاقي لشعب من الشعوب في سبيل واحد ، والا وقعنا في خطأ زمان الجهل الذي كنا نحكم فيه على الاجناس بالقياس على انفسنا لاستحالة خروجنا عن دائرة ذواتنا ولوجود الخرافات التي كانت تحول من دون الملاحظة الصحيحة

خذ مثلا ما كان عندنا في الغرب من بضعة قرون . فقد تسلم رجال الدين القيادة الخلقية وشرعوا يملون علينا ادق تفصيلات مسلكنا في اليوم باعتبارها ارادة الاهية . وهذا الفعل وان كان من مستحدثات العصور الحاضرة فلا

جرم انه يدهش بعض الشعوب الشرقية التي ترى الآلهة اسمى من أن تتنزل الى الاشتغال بمسلك الناس بعضهم بازاء بعض . بل تدهش اليونان والرومان الذين ما كفاهم ان انكروا نسبة الاخلاق الى آلهتهم حتى جعلوها ايضا مثالا للنقائص تسودها الشهوات كالبشر . ولم يروا فيها الا القوة العظمى فاضطروا الى تمجيدها . واتخذت الآلهة هذه القوة وسيلة لارضاء اهوائها ولم تعرف حداً لذلك الا حد مصالحها المشتركة والمصلحة العامة (لاولمپيا) فاذا عدا اله على آخر حلا الخلاف فيما بينهما كما يحله الرجل يقتل ثور جاره أو عبده أو امرأته باداء الدية ، ولم يخطر ببال اله ان يتصور وجوب التماس المغفرة من (جوپتر) كبير الآلهة أو (ڤينوس) الاهة الجمال . وكان السحر وحده هو الخطيئة والاساءة الى الآلهة . ومعلوم ان (السيبياد) لم يتهم بتشويه تماثيل (مركور) حتى جزع الاثينيون على بكرة ابيهم وبوشر البحث عن المجرم لمعاقبته ، لان القوم اعتقدوا بان غضب هذا الاله يودي بالمدينة اذا ترك المذنب وشأنه . ولم يبحث أحد في أمر من فعل الفعلة أكان متكبرا ام طماعا ام فاسقا ام قاتلا لان هذا البحث من شأن من يضرهم الجاني بجرائمه . ولم يفكر احد في اخذ المجرم بجرائره باسم الآلهة لانها لاتحفل بما يصنع الرجل

وظلت الانسانية قرونا طويلة تخشى الآلهة باعتبارها ذواتاً قاسية صارمة لاضابط لها فيجب تسكين ثورتها واكتساب رضاها باقامة الاحتفالات واسداء الاحترام وتقديم القرابين . ولم يقل احد ان افكار الانسان واعماله التي يأتيها في كل يوم تستلفت نظر الآلهة . ولم يتساءل فرد واحد فيقول كيف يتفق لآلهة قاسية – ترسل الصواعق والاوبئة والطوفان على البلاد الآنسة ، وتعجبها الضحايا الدموية – ان تتبسم من اعلى السماء لاعمال غامضة غريبة يعملها البشر تذللا وتزلفا

قلنا ان الديانة وهي واجبات الناس نحو الآلهة لم تكن ذات صلة بالدستور الاخلاقي وهو واجب الناس بعضهم نحو بعض ، ونزيد على هذا ان مباديء

أحد الطرفين كانت في الغالب مضادة لمباديء الطرف الآخر • وبديهى ان الاديان التي تأمر بنحر الاسرى أو تعـذيبهم لا تكون الا حجر عثرة في سبيل تطور الاخلاق • ومن ذا الذى لا يقول ان الاله الفينيقى أو الكنعانى ـ الذى يمد ذراعيه الحديديتين المحمرتين كالجمر لضم الاطفال الذين تأتي بهم امهاتهم ـ أو (كرشنة) ـ الذى حتم على جميلات الهند الاستسلام لكهانه ـ من آلهة الاخلاق الكريمة • مع ان نساء (سورية) لم يكنّ أقل شفقة على أولادهن من اخلاص نساء (كجرات) ـ اقليم بالهند الغربية ـ لازواجهن • فاية قوة تملك في مثل هذه الاحوال ناصية تلك العاطفة الدينية التي لا تكتفى بصدم أبسط شعور خلقي بل تضاد الميول القوية ايضا وتتغلب عليها

ان أول الديانات التي جعلت أساسها الاخلاق ـ نعنى الواجبات المتبادلة بين النـاس ـ ديانتـان : البوذية والمسيحية • ولهذا السبب تمكننا من قلب شئون العالم مع ان العاطفة الدينية فيهما لا تتمشي دائما مع الشعور الخلقى ، فالرجل الجم التقى لا يكون دائما ابداً اكثر الناس احسانا ، بل ربما كان كثير الاساءة احيانا • والشعب الكثير التقى هو الاقل تسامحا وتساهـلا فلا يحجم عن اتيان اشد انواع التعذيب • وما كانت محكمة التفتيش الا من عمل اشد الشعوب الاوربية تدينا • وعلى هذا فالعوامل التي ترقى الخلق أو الدين انما هى غاية في الاختلاف بل ربما كانت متضادة

واذا لاحظنا ان البوذية والمسيحية هما أول الديانات الاخلاقية التي عرفها البشر فلا نعني بهذا القول انهما سودتا الخلق في العالم بل وافقتا الشعور الخلقى وترقيه ولم تسبقاه لانهما لم توجدا الا بعد أن بلغ الشعور الخلقي درجة ما من الرقى ، فالتقطتا روح الاحسان الذي بدا في العالم بعد ان كان مجهولا طائراً في أعاصير البربرية • ولم يبدُ الاحسان بين الجماعات الا يوم ان مالت الى السلم وصار تنازع البقاء أقل قسوة مما كان عليه

خرج الخلق الذي نفهمه اليوم من الوحشية الاولى ببطء كبير • وبينا هو

يبدو على الارض شيئاً فشيئاً اذا باصحاب الاحلام يريدون أن يتصوروه نازلا من السماء وان يلحقوه بالمبدأ الديني٠ ولكنه سيبقى دائماً في نظر الفيلسوف مميزاً على حدة فتولد الآلهة وتكبر وتفنى ويبقى ظلها خارجا عن الانسانية أو يمحى، والخلق لا ينقص فتيلا، فهو منا فينبغي أن يبقى كذلك ٠ وهو ابن الضرورات التي تحكمنا، والمعين لنا على احتمالها ٠ وهو العنصر الاساسي لجماعاتنا فلا محيص من ترقيه معها ولا يستطاع القول قط بانه قد تكوّن وتوثق امره الا اذا غرسته الوراثة في قلوبنا ومنحته قوة الغريزة٠ وانا لمدينون للبربرية الاولى باصل ماوصلنا اليه الآن من الاخلاق

ولقد بسطنا ـ في غير هذا الكتاب ـ العوامل المختلفة للخلق وتفوذ كل منها فيه فنقتصر الآن على تعديدها من دون أن نبحث في تفصيلات عملها فنقول: ان أهم العوامل في ترقي الخلق هي: الانتفاع، والرأي، والوسط، والميول، والوارثة. ولا تدخل فيها الديانات للاسباب التي ذكرناها فيما سبق

واذا أردنا أن نعزو الى الخلق أرقى مبدأ ممكن فظاهر أن عامل الانتفاع هو ـ من دون سائر العوامل المؤلفة له ـ أكثرها عملا وقوة. ولا نعني هذا الا الانتفاع الاعلى الخاص بالجماعة، وهو الذي يدعو الفرد الى الاخلاص للصالح العام للمجموع. وكلما اتسع نطاق اشتراك الناس كبرت واجبات كل مشترك، وزادت اهميته. ويمكننا أن نعد الآن كثيراً من تكاليفنا الادبية متعلقا بطمأنينة النوع البشري بأسره. اما التي تتعلق برفاهة بلد أو جنس فقط ويعبر عنها بأرقى تعبير ـ وهو الوطنية ـ فانها وان خلت من المرمى العام ترقي عاطفة حب الغير وتخرج المرء من ذاتيته فتهبه أشرف الاخلاص

ولقد رأينا الناس في أوائل أمرهم يجمعون من ضعفهم ويجتمعون جماعات لاحسان مكافحة المخاطر المتنوعة المحدقة بهم من الطبيعة أو من أشباههم، فكان على كل عضو في تلك الجماعات الاولى خدمة يؤديها في مقابل الخدمات

التي يؤديها له الآخرون. ومن هنا أصل الواجبات المشتركة المتبادلة. ولم يمض على الناس زمن حتى عرفوا أن عدم النظام يودى بالجماعة، وان الجماعات التي تمزقها الانقسامات الداخلية لا تلبث أن تهلك؛ فعامل كل منهم شريكه في الحياة حتى في أشد انواع التنازع بغير ما عامل به عدوه. وجعل يرعى حرمة حياة شبهه، أو حياة البالغ القوي النافع، لان حياة النساء والاطفال والشيوخ ـ وكل من يعال ولا ينفع ـ بقيت طويلا بغير تقدير

ونما بجانب احترام الحياة احترام الملك، لان الظلم والسرقات كانت تولد المشاكل الخطيرة. وعلى هذا الاساس اقيم الخلق الاولي وما يتبعه من الحق المماثل له. ولا جدال في تمشي الحق دائما مع الخلق لان الحق عبارة عن الخلق مقننا. وقد ولد مثله من الضرورات التي توجدها العادات غير أنه لم يسبقها. ويختلف الحق عن الخلق بانه لا يشمل الا الأوامر الخاصة بالاعمال التي لم تصبح بعد غريزية

والخلق الذي تركزه الوراثة ـ فينتهي في بعض الاحوال بان يصير من الدوافع المطلقة ـ يخضعنا حتما لاحكامه، فالرجل المتحضر لا يدور بخلده اليوم ان يأكل المسنين من اقاربه، فليست هناك من حاجة الى مادة قانونية تحرم عليهم اكلهم، لان العواطف الوراثية التي تراكمت على توالى القرون كفت في منع عودة امثال هذه الاعمال. اما الذي يرغم المشرعين على سن القوانين فاعمال كالسرقة او التزوير او نحوهما مما لم تقو عليه بعد عواطف الوراثة كل القوة. وليس الخوف من الشرطي مبدءاً خلقيا، ولكنه لما كان يقوم مقامه انتفعت به الجماعات وستنتفع الى ان توطد الوراثة مبادىء الخلق توطيداً راسخاً في النفوس

ويخضع الحق لقوانين التطور العامة خضوع الخلق ولا وجود للحق الطبيعي كما لا وجود للخلق الطبيعي

ومن النبوّ عن العلم القول بان مجرد توصل الكيان الى الحياة يجلب معه

الحقوق ، لاننا لا نعترف باي حق للحيوان الذي يولد ، وللمتوحش الذي نحاربه ونسلبه ما يملك . بل لمن هو أضعف منا على وجه العموم. واذا حدث وظهر على كوكبنا جنس أرقى من النوع الانساني بمقدار سمو هذا النوع عن الحيوانات فالثابت المؤكد ان يستخدم هـذا الجنس طوائف البشر كما استخدمت هذه الطوائف الحيوان الداجن. ويمحي الحق البشري ـ نظراً وعملاً ـ محو أمر عرضي لا استقلال لوجوده عن الظروف

ان الشعوب الصغيرة لم تسلم في ايامنا هـذه بأوربا المتحضرة من الفتح والاستغراق الا لعدم اتفاق الشعوب الكبرى على ملكيتها وطمع كل منها في أن تكون له فريسة لا يشاركه فيها سواه . وفي اليوم الذي تزول فيه الموازنة الأوربية المعروفة ويحل محلها تفوق دولة أو اثنتين لا ترى البقية بداً من الخضوع والا أصابها الزوال ، وأبعد حقها عن القسطاس المستقيم للامم

ان الحق الطبيعي الصحيح السائد بمفرده في تاريخ البشرية هو حق الاقوى . وما خلا هـذا فلا توجد الا حقوق محلية جعلت لتخفيف الحق الطبيعي بعض التخفيف ، وقد اختلفت ضرورة باختلاف الشعوب

والظاهر ان الجماعات البشرية الأولى قد أنفقت كثيراً من الوقت حتى فهمت ان الحق ـ الذي يقع على احداها بمقتضى حكم الاقوى ـ يقع في النهاية على سائرها . فلم تتدخل حكومة الجماعة في منازعات الافراد الا في الزمن الاخير لتتولى عن الجماعة عقاب المذنبين

ولقد اعترفت القوانين الاولى كلها بحق الانتقام لمن يقع عليه حيف . واستمر هذا الحق الشخصي على مر العصور عند أغلب شعوب آسيا . بل عند شعوب أخرى نصف متحضرة كأهل (كورسيكا) حيث يرى الواحد منهم انه عار عن الشرف اذا لم يتمكن بنفسه من الانتقام والثأر ممن حاف عليه أو من أهله باعتبارهم جميعاً واحداً في عرف الامم الاولى

ولما أريد القضاء على الاحقاد الدموية ـ التي كانت تضعف الاتحاد في القبيلة وتفرق بين افرادها ـ أخذت الجماعة على عاتقها قضية المظلوم . ولم تتمكن في

أول الامر الامن تقرير عقوبة القصاص فالعين بالعين والسن بالسن . ولكن هذه العقوبة أضرت بها فاذا وقع تعمد ففقدت الجماعة واحدا هو المعتدى عليه ثم عاقبت ففقدها القصاص واحدا آخر هو العادي . ولذا اتجه فكرها الى نظام تقاضي التعويض فصارت الجرائم مما يقتضى التغريم لانصاف المجني عليه . ولم تخطر ببال الجماعة ـ بصفتها جماعة ـ طلب الترضية لنفسها من المذنب أو تقرير العقوبات الرادعة وأخذ الطريق على الجرائم قبل وقوعها

ولم يكن الرأي العام في هذه الاوجه الاولى للقانون بحيث ينحى باللائمة على المذنبين فلم يحسب السرقة والاغتصاب والزنا وقتل النفس من الامور المزرية بالشرف ، فكان المعروف وقتها ان العدل يقضى بالتعويض المالي عن الضرر ، فمن تسبب في ضرر ثم عوض عنه بدفع المال فقد برئت ذمته امام ضحيته وامام الجماعة

هذا ما كان عليه الخلق والقانون اثناء العصور الاولى للتاريخ . وقد استمرت هذه الحالات الاولى طويلا جداً بحيث وجدت آثارها في قوانين وضعية ليس العهد بها ببعيد

ثم جاء قانون الالواح الاثنى عشر فقرر التعويض عن السرقات . ثم جعلت دية الفرد في القانون الجرماني على نسبة طبقته ، ففدية الشريف أو القسيس كبيرة اما دية الفلاحين والنساء والعبيد فقليلة

واذا كان الرأي العام عند الاقدمين لم ير ـ في معظم الجرائم ـ أكثر من ضرر تسهل ازالته فلا ريب في ان الرأي المذكور قد شرع من زمن قديم في ايجاد مباديء للشرف والوطنية ومحبة المجد والحضارة . وقد وجدت هذه المباديء بعد ذلك راقية في أقدم الحضارات بحيث صارت احكام الرأي العام أقوى من احكام القانون بقطع النظر عن صحتها وفسادها . فبني على هذا ان الجرائم التي استرذلها العرف العام أخذت في التناقص باسرع مما كانت عليه امام تهديدات القوانين . وانا لنرى الآن بعض الجرائم كالزنا والمبارزة قد عجز

عنهما الدستور الاخلاقي والدين والقانون لان الرأي العام لم يمقتها كل المقت وللرأي العام من القوة ما يحوّل به الدستور الاخلاقي والقانون ، ولا سلطان لهما عليه . ويقال بالاجمال ان الضرورات توجد الرأي العام ، وهو يوجد العادات ، والعادات هي الاصل في الدستور الاخلاقي والقوانين

واذا ما بقي الرأي العام في موضع واحد لا يتغير عدة اجيال اثبتته الوراثة في النفوس اثباتاً لا يمحى . وكل فعل يقر الرأي العام أو العرف بانه من مرتبة الخلق ـ عدة من القرون ـ لا يلبث ان يصبح غريزة كما هو حاصل عند بعض متوحشي الهند اذ لا وجود للكذب عندهم لان العرف انحى عليه منذ بضعة قرون . وما يقال عن الكذب يقال عن السرقة ، فهناك قبائل تموت جوعاً بجوار الاطعمة المعهود اليها بحراستها ، ولا تبيح لنفسها المساس بها . ولا ننسى أيضاً ذاك الاعرابي المغرم بالسلب والنهب مع انه يموت في الدفاع عن ضيفه ولو كان الضيف من اعدائه

قلنا ان العواطف التي يظاهرها ويحفظها الرأي العام أو العرف تثبتها الوراثة فتصير غريزة لا سبيل للعقل عليها . ونقول أيضاً ان الخلق في شخص أو جنس لا يرسخ الا اذا صار غريزة . وانه يجيء من نفسه منذ الولادة ولا يتعلم من الكتب لانه ميراث زمن طويل ، وصدى صوت من زاروا المقابر . وليست المعقولات التي نحوط بها أولادنا ونلقنهم اياها هي التي ترفع مستواهم الاخلاقي وانما هي جهودنا واعمالنا الخاصة التي نتركها للخلف

ولما كان القانون والخلق قد كونتهما التطورات العتيقة البطيئة ، وكانت ضرورات البيئة والبناء الاجتماعي تجعل هذه التطورات مختلفة باختلاف الامم . فانا نجد عند البحث في الحضارات الاولى مباديء غاية في التباين تثبت ان لا وجود للحق الطبيعي والخلق العام . ولا ينبغي لنا ان نحكم بالعدم على عادات وأساليب تغاير ما عندنا فكل من جرى على خلق بلاده وزمنه فقد أحسن • ومهمة المؤرخ تنحصر في فهم أصول عواطف الاجداد وايضاحها من دون ادنى تعرض لنقدها أو الحكم عليها

الفصل الخامس

﴿ نشوء الملكية (حق الملك) والصناعات والحكومات وترقيها ﴾

١
نشوء الملكية

تبدو لنا الآن افكارنا في الملكية الشخصية عادلة بسيطة . مع انها لم تغرس في الاذهان الا ببطء كبير بعد ان قضى الناس قروناً طويلة على جهل تام بها وان كانت أحدث عهداً من فكرتي القانون والخلق • ويدل على هذا اننا لا نزال نرى الى اليوم ـ حتى في أوربا المتحضرة ، وبالرغم من وجود القوانين ـ آثاراً من اشكالها السالفة

ولقد عاكست العوامل الاصلية لتطور الملكية عوامل ثانوية عديدة ، فوقف ترقيها عند حدود مختلفة لدى الشعوب التي بلغت درجة واحدة من الحضارة . ولا نستطيع هنا الا بسط الوجوه العامة التي تقلبت على الملكية عند أغلب الشعوب بنظامها الطبيعي • وفي هذا البسط كفاية في الدلالة على ان الملكية خاضعة كغيرها لقوانين التطور العامة

جهل الاولون الزرع والتدجين فكان معوّلهم في العيش على الحاصل من صيد البر والبحر . ويؤخذ مما نلاحظه اليوم عند الشعوب المنحطة المتوحشة ما يجعلنا نفترض اشتراك الاقدمين في الاراضي ومجاري المياه ، وحصر هذه الاشتراكية في القبيلة الواحدة ، فكان لكل قبيلة منطقة صيد برية أو بحرية تدافع عنها وتحميها من كل مغير • وهذا الضرب من الملكية هو كل ما فطن له الاوائل ، ولذا لم يرتفعوا الى أعلى من مرتبة الحيوان . ونظرة الى ما تفعله جماعات النمل في الدفاع عن مساكنها ورد عادية غيرها تقنع بصحة ما ذكرنا وتدافع النحل عن خلاياها دفاع النمل ، وتحذو الحيوانات المفترسة هذا

الحذو ، فتذب عن منطقة صيدها . واذا صح ان فكرة الملكية كانت في شكلها الاول بهذه الكيفية فلا بد من وجود نظام الاشتراكية في القبيلة عند جميع الشعوب العائشة على صيد البر والبحر فقط ، وهذا هو الحاصل . والامثلة متكاثرة الى اليوم في الاوقيانوسية وأفريقية وعند هنود أمريكا ، وسنذكر بعضا منها

في زيلاند الجديدة قبائل تعيش بالاشتراك المطلق ، فادوات الصيد على نوعيه مشتركة فيما بينها عدا الارض والمياه . وفي أفريقية السوداء - حيث الوحشية التامة - تتبع الارض من هو أهل للاستفادة بها ، وليست للقرى من بقاع محددة ، فاذا أريدت ازالتها أزيلت ونقلت الى مكان آخر لاقل الاسباب

ولا يعرف ذوو الجلود الحمراء بامريكا الشمالية اسماً للملكية الا في أرض الصيد التابعة لكل قبيلة فيدافعون عنها في حروبهم الداخلية وفي صد غارات الاوربيين ، واذا اضطروا الى التخلي عنها آثروا الموت على تغيير طراز معيشتهم

وتلاحظ الاشتراكية المطلقة عندالاسكيمو ، وهم شعب ينقسم الى جماعات صغيره ، فكل ماجماعة من الجماعات ملك لافرادها ، ولاسلطان لاحد على آلة أو اداة الاوقت استخدامه اياها . واذا جاء الصيد بحوت أو فقمة قسم بين الجميع . ولا وجود لما يعتبر ملكا فردياً اللهم الا القليل من المغانم أو قطع الحطب بما لا يزيد عن حمولة الرجل وبعض المتاع الشخصي كالملبس مثلا . أما الاكواخ والسفن وأرض القرية فكانت كلها ملكاً مشاعاً للجماعة

وبعد ان كان الانسان لا يعيش الا من الصيد شرع في تدجين الحيوان وطفق يعيش من نتاج قطعانه . ولكن عصر الرعي لم يغير من نظام الملكية تغيراً أساسياً ، لأن المرعى يستلزم أرضاً متسعة ، وانتشار القطعان ومثله مثل الصيد لا بد أن يكون في منبسط من الأرض لا يستطيع ملكه فرد أو سرة تعجزهما حراسته ، ويتعذر عليهما الدفاع عنه ، فتحتمت المشاركة على

الشعوب الراعية اذن كما تحتمت على الشعوب الصائدة

خذ مثلاً على ذلك قبائل (الهوتنتو) فمراعيها مشتركة فيما بين رجالها والمواشي أهم ثروتهم . بل نذكر (الشعب العربي) المرتفع عنهم في سلم الحضارة بكثير فقد بقي هذا الشعب في قبائله الراعية على نظام الملكية المشتركة في الأرض ، فهي ملك لجميع رجال القبيلة

ولم تبق الاشتراكية الأولى بين الشعوب التي نالت قسطاً من الحضارات الأولى الا في النادر • واذا أستثنينا (العرب) الذين اشرنا اليهم ـ وكانوا في اضطرار الى الاشتراكية بطبيعة أرضهم وطراز معيشتهم ـ فلا نستطيع أن نذكر شعبا من شعوب الحضارة استمسك بالاشتراكية الاهم الا قدماء اهالي (بيرو) قبل زمن الفتح الاسپاني ، فكان كل وطني يتزوج في سن معلومة يأخذ بيتاً وقطعة من الأرض يزيدونها له كلما ولد له طفل . وكانت معيشة الآلهة والملك والشيوخ والعجزة على الشعب يعطون كفايتهم قبل غيرهم ، وجميع من عداهم مختص بالعمل ولا يستطيع ان يجمع له ثروة لأن كل ما يقع له من الأشياء أو الأقمشة مما ليس له أن يستعمله يجب عليه ارساله الى خزائن الآلهة أو الملك . وعلى هذا النحو لم يكن عند أولئك القوم اغنياء ولا فقراء بل الاشتراكية المتمناة الآن ، والمساواة التي تطلب ولا تنال • ولسنا نعرف كثيراً من تاريخهم لنقول أكان عندهم السلم والرفه والسعادة التي تتمنى في هذا العالم

أما الاهتداء الى الزراعة فهو الذي ادى الى أول تغيير في نظام الملكية ولا بدع فالذي يكد في فلاحة ناحية من الأرض ولا يحصل منها الاعلى حصاد ضئيل لا يلبث ان يمر بخاطره وجوب تمتعه بثمرة تعبه

ولم ينازع الانسانَ أحد في هذا الحق يوم أن بدا ، لأن الثمرة الحاصلة لم تكن اذ ذاك على مقدار الجهد المبذول ، ولأن وجود الغابات الأولى الكثيفة وما تحويه من طيب الصيد كان محط آمال لافاقيين القليلي الصبر

الذين لا يستطيعون التريث أياماً طويلة الى أن ينبت الزرع وتنضج سنابله

ولقد كانت الفلاحة من المشقة بمكان . ولذا لم يباشرها الرجل الا ومعه أولاده ونساؤه وعبيده اذا وجدوا . ثم انضم اليه اخوانه واقاربه • غير أن الأرض لم تستثمر من ثم بالاشتراك كما كانت مناطق الصيد الكافية في اطعام القبيلة . فانفرط عقد الأسرات ، وانتحت كل اسرة ناحية ، وجعلت تفلح لنفسها ، ولا تسمح لغيرها بشيء من حاصل كدها • وكذلك حلت ملكية الأسرة محل ملكية القبيلة . ففي الحبشة مثلاً تملك الأسرة قطعة من الأرض واحدة لا تتجزأ بين أفرادها ، ولا تورث البنات على الأغلب مخافة انتقال الملك بالزواج الى الاجانب الا عند فقدان الورثة الذكور حتى الدرجة السادسة • وكان مثل هذا القانون موجوداً عند الفرنك والملك للأسرة . أما عند العبرانيين فقد كانت الأراضي تقسم بين الأسرات ويجدد التقسيم كل نصف قرن مرة لازالة ما يطرأ من التفاوت . وهذا ما يسمونه (عام اليوبيل) . ولا شك في أن هذا التقسيم الدوري ـ لتتساوي حصص جميع الأسرات ـ انما هو من بقايا الاشتراكية الأولى

ولم تصر الملكية شخصية الا بعد ان مرت بهذين الدورين : اشتراكية القبيلة ، واشتراكية الأسرة . ومع هذا فلم تكن على شيء من الصفة المطلقة التي هي عليها اليوم من مثل تصرف الرجل فيما يملك اثناء حياته ، وبعد مماته بالوصية لمن شاء . ففكرة الملكية الفردية على النحو الذي تبدو به الآن مصونة مقدسة لم تخطر ببال الناس الا في زمن متأخر

نعم ان بعض الجماعات الأولى وصل الى تقديس الملكية الفردية بشيء من السرعة ولكن هذا في حكم الشاذ • فأهالي (كليدونيا الجديدة) وبعض القبائل الاسترالية تعرف الملكية الفردية ، غير أن الكثير من هذه القبائل يتعاطى الزراعة • اما الذين يزاولون الصيد فلا يملك الفرد منهم مصاداً كبيراً قط ، مع ان ما يصيدونه من الأسماك والقواقع والحيات وما اليها يكثر في

بقاع ضيقة لا يعجز الرجل الواحد عن استغلالها والاحتفاظ بها

ولا يخفى أن مثل هذه الحال النادرة لا تهم الباحث في تطور حق الملك لأنها لم توجد عند الشعوب الأولى وان وجدت عند بعض المتوحشين الحاليين

وأما الذي وجد في بدء عهد التاريخ فالدور الثاني من الملكية وكان في أول أمره فكانت الشعوب تتخلص من اشتراكية القبيلة وتدخل في اشتراكية الأسرة . وبلغ هذا الدور أوجه في روما الجمهورية واسرتها وأرضها التي لا يصح نقلها الى الغير ، فعليها يقام هيكل الآلهة وتبنى قبور الاجداد

ولا ننكر ان ذكرى الاشتراكية الأولى كانت لا تزال موجودة في العصر القديم كله وفي العصور الوسطى . لأن الرأى القائل في أوائل عهد الاقطاع بأن جميع الأرض تتبع رئيس الأمة وان ملاك الالتزامات ليسوا سوى مرتفقين ومنتفعين بالثمرة - يدل على مقدار استقلال نظام الملكية عن شكل الحكومة

اجملنا ذكر القوانين العامة لتطور الملكية . ونكرر أنها من الأنظمة الحديثة العهد بحيث لم تذهب اشكالها القديمة كلها من نظم الشعوب المتحضرة . فاشتراكية القبيلة لا تختلف كثيراً عن اشتراكية القرية ، مثل الموجود بجاوة وبقسم كبير من الهند وروسيا . ولا تزال الاشتراكية في الاسرات جارية مجراها عند اهالي سفوح البرينات (البرانس) وقد خلفت أيضاً آثاراً في انكلترا بدليل عادة حق كبرى البنات

ويرى مما تقدم ان النظام الذي يريده الاشتراكيون الحاليون ليس بنظام مستحدث فالاشتراكية التامة هى أول النظم من نوعها واحط شكل للملكية عرفه الانسان ، فلا بد لبعثته واعادته الى الوجود من زوال جميع عناصر حضارتنا الحالية

٢
ترقي الصناعة

للصناعة من يوم وجدت تأثير عظيم في سير الحضارة وظروف وجود الانسان ، وكلما ارتقت رقت الجماعة وخدمتها

ولم يلبث نفوذ الصناعة ان ازداد على توالى القرون حتى فاق اليوم تأثير العوامل الأخرى . وليست الحرب - التي أظهر لنا التاريخ الى عهد حديث انها رافعة الامبراطوريات وخافضتها كما تشاء - ببالغة مبلغ الصناعة العظيمة في نتائجها . فالصناعة هي التي أوجدت العبودية وهي التي ازالتها ، وهي التي ستهيمن وحدها على أشد منازعات الاجناس البشرية . وسترى الاسواق في المستقبل من النزاع ما هو انكى على الخاسرين وأتم فوزاً للفائزين مما كان يحدث في الوقائع الحربية في مختلف أزمنة التاريخ

ويكفي ان نبسط مجمل التطور في الصناعة ليستدل القارىء على أهمية الدور الذي كان لها في ترقية الحضارات فنقول : ان مبتدأ أمر القوة الصناعية التي ستخضع العالم يوماً لسلطانها كان من الحقارة بمكان ، اذ عاش الانسان طويلاً وهو أقل عملا من الحيوان المعروف بكلب الماء ومن النملة والنحلة والخطاف . ثم ابتدأ في خطاه الأولى فتعلم قطع الصوان بضرب أجزائه بعضها ببعض ، وصنع أسلحة ومعدات غليظة ساذجة ، وكان الصيد مورد حياته . فأول ما برع في صنعه كان معدات الهلاك من مثل الجرز (القرص) والرمح . ثم اصطنع القوس والمقلاع ، وهذان الاخيران من الآلات المنجنيقية الأولى ، ويستعملان في استراليا وبولينيزيا عند المتوحشين الذين لا يعرفون معالجة المعادن الى الآن

اما الاسلحة الدفاعية كالترس المتخذ من قشر جذوع الشجر والدرع الادم المحشو بالقطن فهي أيضاً من أسلحة الاوائل . وعليه يصح القول بأن الاهلاك لما كان من الزم اللوازم للانسان فآلات الموت هي أول ما صنع .

ولم يكفّ من ثم عن إعمال ذكائه حتى بلغ ما بلغه في المستكشفات الاخرى مستخدما موارد العلم ، غير ان مستوى الحضارة عند أي شعب انما قيس بدرجة الاتقان التي وصل اليها سلاحه

وأهم المستكشفات ـ بعد صنع السلاح الغليظ للهجوم والدفاع ـ اكتشاف طريقة الحصول على النار . وبلغ من نفع النار ان عبدها القدماء وألهوا قوتها ، مع انهم استخدموا هذه القوة . وعبادة النار عامة عند معظم الشعوب الاولى وعند الآريين خاصة فقد كانت عندهم عنصر الحياة ينبث في الوجود ظاهراً وخفية ويحيي كل شيء

ولا يخفى ان اكتشاف النار انما هو الأصل في وجود الصناعات الهامة فقد يسرت النار انضاج الاطعمة وأوجدت صناعة الفخار ثم صناعة المعادن بعد ذلك بكثير وفيها سبق البرونز الحديد وبها تمكن الانسان من افتتاح العالم

ولم تأخذ الحضارات في الرقى الحقيقى الا بعد استخدام المعادن • لان قوة المعدن سهلت صعوبة معالجة مواد الصناعة ، فالشجرة التى لم تكن تقطع بالفأس الحجرية الا في ايام تقطعها الفأس المعدنية في ساعات • والسفينة التي كانت تنقر باحجار الصوان في شهور تنقرها الآلات المعدنية في أيام . فلا يدهش الانسان اذن ان بعض الشعوب الافريقية يحترم الحداد كما يحترم القسيس ، ويعتبر طبقة الحدادين من طبقات الاشراف

وأصل ترقى الصناعة الجدية انما كان تقسيم العمل . وقد تحتم التقسيم من يوم ان انضمت الاسرات البشرية الاولى بعضها الى بعض وكوّنت القبائل . اما في البدء فكان الرجل يصنع لنفسه ولا سرته السلاح الساذج والملابس والكوخ والسفينة . فلما اجتمعت الاسرات شرع الرجال يتبادلون مصنوعاتهم فتولد من هذا تقسيم العمل . وادى هذا التقسيم بطبعه الى اتقان الصناعات بسرعة . لان صناع الاشياء المتشابهة كانوا يتبارون في تحسينها وزيادة المصنوع منها . فلما أخذ عنهم اولادهم الصناعة رسختها في هؤلاء العادة والوراثة •

وازداد التخصيص في الصناعات شيئاً فشيئاً ، فبعد ان كان العامل يختص بعمل شيء بتمامه وصلت به الحال الى الاختصاص بصنع جزء منه . ولكن التخصيص - على النحو الموجود الآن في الحضارات الحالية - لم يكن الا محدوداً في الحضارات السابقة ، على الصورة التي لا يزال عليها اليوم في الشرق والصانع الشرقي أرقى من الاوربي فنية مع انه لا يشتغل الا بآلات قليلة . ولذا فان تقسيم العمل لم يمنعه صنع الشيء تاماً بيده ، فيخرج المصنوع وله طابع شخصي لايمكن أن يكون له بالصناعة الحالية . وعلى هذا نرى ان الصانع الشرقي لم يكن قط مجرد عامل آلي يمضي عمره في عمل واحد كالطرق مثلا فيخمد ذكاؤه بسرعة من جراء العمل الآلي الوحيد الوتيرة

ولم تعرف الحضارات الاولى ولا التي اعقبتها في الشرق الى يومنا هذا شيئاً من الآلات الاهم الا الاولية منها . فكل عمل من الأعمال كان يتم بواسطة الانسان . وكان العمال عادة من جماعة العبيد ، ولذا كانت العبودية نتيجة أولى لرقي الصناعات ولولاها لما كان اتقان هام في مصنوع . وكيف يتم هذا الاتقان في عصر كان على الانسان فيه ان يعمل كل شيء بنفسه فيكون صانعاً وزارعاً ومحارباً ؟

وفي الوقت الذي كان فيه العمل اليدوي الواسطة الوحيدة عند الانسان لصنع أقل الاشياء كان لابد من عدة أيد تعمل في ايجاد الضروريات والكماليات ، وهل هناك أصلح لذلك من ايدي العبيد الذين تأتي بهم الحروب ؟ وعلى هذا كان الفاتح اذا افتتح مدينة أو اقليما أخذ أهله عبيدا الى مصانعه . وقد عمد البيض من عهد غير بعيد الى هذه الطريقة فجروا عليها مع سكان شواطيء أفريقية السوداء

ويوجد نظام العبودية في اساس جميع الجماعات القديمة ، وهذا يدل على مقدار الحاجة المحتمة اليه . فلا مكان اذن لما أكثر فيه المحامون والمؤرخون من الاقوال المضادة للعبودية على غير جدوي ، وقد كان الاولى لهم الاجتهاد في تعرف أصول هذا النظام ونتائجه

وقليل من التفكير يدلنا على ان العبودية وحدها هي التي يسرت الرقي الصناعي الذي نرثه اليوم • وهي التي كان من أثرها تلطيف بلايا الحروب وويلاتها بمنع الفظائع التي كانت ترتكب في ابادة الاسرى عوضاً عن تشغيلهم

ولما كانت حقوق السيد على عبده كحقوق الفارس على جواده أكرم السادة البارعين من العبيد كما يكرم الفوارس كرائم الجياد • ودفعتهم المصلحة الى تيسير رفاهتهم ، فكانت العناية بهم أكثر من العناية اليوم برئيس مصنع • وكذلك حق القول بأن ما تأتي به الصناعة القوية من ظروف الاحوال لا يمكن ان تغير فيه اقوال الفصحاء من الخطباء • ولربما كانت الصناعة الحاضرة تعد للانسان ازمانا اشد قسوة من زمن العبودية القديمة ، فاكتشاف الفحم الحجري والبخار والكهرباء نزل بالعامل الى مهمة آلية وفي مثل هذه المهمة يتساوى الرجال كافة في القيمة . ولكن الارض تحوى مئات الملايين من الهندوس والصينيين وغيرهم نعني من الذين لا يحتاجون الى مثل ما يحتاج اليه العملة الغربيون • وقد سهلت لهذه الملايين المواصلات ويسرت لهم بسرعتها ونظامها تعوّد العمل في مثل مصانعنا • فمن ذا الذي لا ينتظر لهذه الاقوام الغلبة على عمالنا ، وما الذي يكون يوم تتمكن هذه الاجناس - بفضل جدها وقناعتها وكثرة الفحم الحجرى عندها وانتفاعها باستخدام آلاتنا - من اغراق الاسواق عندنا بسلع تقل اثمانها عما يصنع في أوربا بعشرين ضعفا مثلا

وهناك شكل من التطور الصناعي أكثر رفعة من العبودية ، نعني به الخدمة ، وسنجدها عند بعض الجماعات القديمة ونرى فيها احياناً ان يعقبها دور أرقى يقابل ما كان عند طوائفنا الصناعية في القرون الوسطى . ويمكن عد نظام هذه الطوائف مثالاً منها • ومن مقتضاه أن يطلب الاتقان في العمل من كل عامل فلا يرقى العامل المتعلم الى درجة زميل ثم الى درجة معلم (اسطى) الا بعد أن يسوق الدليل على كفاءته ويبرز رائعته وهي أقصى ما

بلغ اليه حد اتقانه بعد عمل كثير من السنين

وكانت كل طائفة شديدة في نظامها تغار على امتيازاتها وشخصيتها وتحتم اموراً كثيرة على اعضائها فلايجيئون الا باعمال متقنة آية في الجمال ، وكانت الأسواق قليلة ووسائل النقل بطيئة وتصريف المصنوع مضموناً لسهولة رد عادية المباراة الأجنبية . وبلغ من امر هـذه الطوائف ان قوي سلطانها كما كانت الحـال عند طوائف الفينيقيين ، فسلحت السفن وانشأت المـدن والمستعمرات وصارت عظيمة الاقتدار ، والمثل على ذلك صناع الجوخ في هولندا فقد قاتلوا (شارلكان) واحرزوا النصر . وعلى هذا يصح القول بأن الصناعة التي جعلت من الحر عبـداً ما لبثت ان صيرت العبد سيداً في كثير من البلدان ، وقابلت سلطة السيف الجائرة المستبدة بما هو أقوى منها ، نعني اقتدار العمل

ولا توجد اشكال التطور الصناعي التي ذكرناها الا في الصناعة الصغيرة وهي كل ما عرف الأقدمون ، أما الصناعة الكبرى فقد أوجدت شكلاً جديداً من التطور بما سنته من تضييق دائرة التخصيص في العمل واحلال الآلة محل العامل . ولكننا لا نبتعد هنا عما كان عند الجماعات القديمة . ولو عمدنا الى بسط تاريخ الصناعة لقلنا بسهولة انها من اقوى العوامل التي فعلت في تطور الجماعات الحاضرة . وليست الانقلابات والحروب في الغالب الا ادواراً من أدوار تغيرها وتحولها كما ان الزلازل التي تدهش وترهب ليست سوى صوراً مصغرة من بطيء عمل التطور الذي يغير كوكبنا شيئاً فشيئاً ويحوله

وقليل من المؤرخين والساسة من فهموا المقام الأول للصناعة في التاريخ حتى أن مشرعي الانقلاب الفرنسي الأكبر لم يسلموا من الوقوع في خطأ يسخر منه المفكر ـ لما ارادوا اتحاف الناس بانظمة حرة ـ فالتمسوا بديلا من عتيق نظام الحكومة والطبقات فيما كان عند الأقدمين ، فجاءت جمهوريتهم قابلة لكل ما يدخل عليها . فلم تشبه حتى تلك الجمهوريات الارستوقراطية

الأولى التي لم يتمتع بلقب وطني فيها الا عدد محصور من ذوي الامتيازات ، بينما كان العبيد – وهم العديد الأكبر – لا حساب لهم في الرجال مع انهم قوام الجماعات بما كانوا يقومون به من مختلف الأعمال

ولا يعد العمل العظيم الذي جعل من الدنيا القديمة دنيانا الحاضرة – بفضل الصناعة – الا أمرا يسيراً بجانب العجائب التي تأتي بها القوة الصناعية في بضع سنوات ، بل بجانب ما ينتظر ان تجيء به أيضاً مستعينة باكتشافات العلم

ان البخار قوة فعلها أشد من (المقصلة) التي كانت في عهد الانقلاب الفرنسي . وما يجيء من التحول والتغيير الاجتماعي بتطور الصناعة لا يمكن ان تقارن به أشد الحروب اجتياحاً أو انكر الانقلابات دموية الا اذا قورن العملاق العظيم بالطفل الضعيف

وأكرر القول بأني لا ابحث هنا عن نتائج سرعة تقدم الصناعة ففي تقريب ما هي عليه الآن مما كانت عليه في أول أمرها كفاية تلفت القاريء الى اهمية هذ المحرك الاجتماعي القدير الذي اوجد الحضارات وفعل بها تغييراً وتحويلاً ولا يزال يفعل

٣

نشوء الحكومات وترقيها

لا ينبغي ان تعتبر الانظمة السياسية في تاريخ تطور الجماعات البشرية كاسباب بل كنتائج ، لانها ترجمان حال مدنية الشعب تتطور معه . والنظام السياسي لامة لا يدل الا على ظروف حياتها ، وعلى الادوار الحكومية التي تقلبت عليها ، وستبدو هذه الحقيقة يوماً ما كأنها من أولى الحقائق الواضحة ، وان لم يتناولها الآن الا اللمح . لاننا لم نتخلص بعد من الخطأ القديم المقول به في كافة الانقلابات ومعناه ان الشعب يستطيع اختيار النظم التي يراها في نظره خيراً من سواها ، ويتصور ان مصيره يتغير بتغير الانظمة التي يتخذها لنفسه

لا يزال بعضهم يظن ان القوانين الاساسية للحكومات تسن في يوم ثم تفرض على الناس ليذعنوا لهـا بالاقناع أو بالقوة ، وان حضارة شعب من الشعوب المنحطة لا تكون الا بتسييره على مجموع القوانين التى نجحت اكثر من سواها عند الشعوب الراقية ، وهذا باطل

أنشأ (ليكورغ) و (سولون) قوانين تعد مثالا باقيا في بطون الكتب القديمة ، ولكن هذه القوانين لم تبق الا لان واضعيها اكتفيا بتقنين العادات التى أثبتها التعود والدين في النفس . فجاءت القوانين المذكورة على وفق حاج الشعب الذي ستسري عليه . قال (سولون) لم أجيء للاثينيين باحسن مايسمو اليه التصور من القوانين بل باحسن ما يوافقهم

وسيدلنا درس الحضارات التي تعاقبت في التاريخ على مبلغ صحة القول بان الانظمة السياسيه هي مظهر حاج الشعب . فاذا لاحظنا وجود نظم متشابهة عند أمم وصلت الى وجوه متشابهة من التطور استنتجنا حتما ان هذه الأمم انما قبلت تلك القوانين كضرورة لا محيص عنها ولم تخترها اختياراً . اذ لا يوجد مثل واحد من التاريخ على شعب غير نظمه فجأة . فهي الاسماء التي تتغير أحياناً بعد الانقلابات الدموية أو الفتوحات المبينة . ولم يكتب الدوام قط لتغيير فرضه أعتى الفاتحين الا كان هذا التغيير طفيفا وغاية في الضعف . واذا كان الامر كما ذكرنا في الازمنة القديمة فهو كذلك في العصر الحاضر

خذ جزيرة (كورسيكا) مثلا تجدانها منوطة برجل فرنسا كما تناط القنبلة. لها حاكم وقضاة وقانون وشرطة ومع هذا فلا يحكمها الا قطاع الطرق فيها ولم تتغير أحوال الجماعات هناك عما كانت عليه في القرون الوسطى

والمثل الآخر (ارلندا) وهي تكاد تكون كسيرة تحت اليد الانكليزية الحديدية ، ولكنها لم تتغير . وهناك الشعوب المنحطة التي نحاول ان نحكمها بقوانيننا على غير جدوى كعرب الجزائر . وهي تعد خير برهان على استحالة تغيير النظم ، لانه بمثابة تغيير عقلية الشعب

ومن يتدبر تاريخ الامم يجد انها اجتازت أدواراً عامة من الدستور السياسي كما اجتازت ادواراً دينية أو صناعية . فلم تنشيء نظمها قط مما تجمع من هاهنا وهنا

والقواعد التي تليق بشعب لا تصلح لغيره فقيمتها اذن تبعية . ولقد كان الجبروت صالحا في أوقات ، والحرية في أخرى . والنظام السياسي انما هو وليد ضرورات وجوده وبيئته من جهة ، وعواطفه وافكاره الموروثة ـ نعني ماضيه ـ من جهة أخرى

ويجيء نظام القانون كله على وفق عقلية الشعب فلا يختاره كما لا اختيار له في العواطف والافكار التي عنده منذ وجوده . ولا تتغير نظم شعب قط الا بتغيير ظروف وجوده فمن العبث ان يسام الاذعان لقوانين غير التي يخضعه لها ماضيه ، لانه لا يطيقها • ومن المحال ان يؤتى له معها وهي نتائج بجميع الاسباب التي كانت الاصل فيها . وسنبين للقاريء بعد ما ذكرناه كيف نشأت الحكومات وترقت في المدنيات الأولى ، فنقول :

ان تأثير البيئة من العوامل المعدودة في الدرجة الأولى . وسندل على أهميتها في فصل خاص فيرى القاريء ان بعض البيئات تتضمن أنظمة خاصة . مثال ذلك ان الشعوب التي تعيش في الصحاري لا بد ان تكون متبدية ، لا تقيم حتى تظعن . فالحكومة المركزية عندها غاية في الضعف حتماً ، والسلطة الابوية قوية والتقاليد مرعية ، وحب الاغارة والغزو متسلط ، حتى ليمكن القول بانها سكنت جميع البقاع المختلفة • وهذا على عكس الشعوب التي تعيش من الصيد بالاراضى الغابية • اذ الحكومة عند هذه لا بد ان تكون استبدادية قوية والسلطة الابوية ضعيفة • ولا علم لهذه الشعوب بالتقاليد ولا همة فيها لغزو العالم

غير ان هذا قد يعد من الاحوال الخاصة فلا ندرسها الآن وانما نلتفت الى الدلالة على الكيفية التى ترقت بها النظم الاساسية الحكومية التي يجدها

الانسان عند جميع الشعوب على وجه التقريب

وأقدم أساس للحكومة انما نشأ عن حاجة الاسرات البشرية الأولى الى المشاركة في دفع اعدائها لان الوجود كان مخوفا والدمار نصب عين الانسانية الأولى فأول ما خطر ببال المتوحشين الاولين انما هو الاجتماع جماعات وايجاد قوة أولى من مجموع وحداتهم الضعيفة لمواجهة الحيوانات المفترسة ورد عادية أمثالهم من المعتدين • وقد أبنا في فصل سابق ماهية هذه الجماعات التي كانت أشبه بقطعان الماشية

وماذا يغني الاجتماع اذا لم تجر الاعمال بمحرك مشترك ، وكيف يتم ذلك الا اذا وجد رئيس يكون أعقل القوم وأقواهم وا كثرهم مهارة ؟

ان القردة تعيش بهذه الكيفية فتجتمع جماعات صغيرة يرأس كل واحدة منها ذكر قوي • وهذه الصورة الأولى من الحكومة توجد عند البشر مثل شعوب (الباتاجون والنيوزيلانديين والاستراليين) • والجماعة عند هؤلاء الاخيرين لا يكاد يزيد عددها عن ٢٠ أو ثلاثين من ذكران واناث واطفال يرأسهم واحد

ومما يدل على نشوء هذه الجماعات ورؤسائها ـ تبعا لما قضت به ضرورة دفع العدو أو مهاجمة الخصوم وانتزاع ما في يدهم من نزر القوت ـ أن بعض الشعوب الاولى لا وجود عندها للجماعات برئاسة الافراد عليها الا وقت الحروب فقط فاذا انتهت الحرب انتهت الرئاسة • والمثل على ذلك أهل (تسمانيا) فرؤساؤهم وقتيون وكل جماعة تختار الرئيس عليها قبل شن الغارة فاذا ما انتصرت أو خذلت تساوى الرئيس والمرءوس

أما الامم التي لا تباشر الحرب فلا تفقه مبدأ سلطة الفرد ومن ذلك (الاسكيمو) فانهم يعيشون جماعات صغيرة مسالمين لا يقاتلون ولذا لم يصلوا الى فكرة الملك • وكم كان مقدار دهشتهم لما رأوا النظام في السفن الاوربية وشاهدوا انصياع البحارة الشداد لاوامر القائد الواحد

وليست الحرب ـ كما سترى ـ السبب الوحيد في نشوء الحكومات الاولى. ولكنها اذا كانت السبب في نشوء أية حكومة فالرئاسة في هذه الحكومة لفرد

ولقد أدرك الناس من أول عهد خصوماتهم قوة النظام وعرفوا انها أهم من قوة العدد • فكثير من الجماعات الصغيرة فرقتها مطامعها الوحشية فذهبت في خبر كان لفقدان النظام

ومعروف أيضاً ان ضرورة الطاعة لارادة واحدة وفكر واحد لامحيص عنها وقت الخطر، حتى عند أغبى الناس. فالمحن القاسية اذن هي التى علمت الاوائل الخضوع بل والافراط فيه. والجبروت الذي يتحكم به ملوك أفريقية الى اليوم دليل على ذلك

واذا كان الخوف ولد فكرة الآلهة فهو الذي أوجد أيضاً فكرة الملوك. ولما امتزجت الفكرتان، ومهر القادة الاوائل في طبع قوانينهم بطابع الالوهية وأمرها، تخطت سلطتهم كل حد وتحكم هوى الواحد في آلاف من امثاله فعبدوه

وعلى ما تقدم يصح القول بان الحرب ام للحكومات الملكية المطلقة، لانها هي التى تؤدي الى وضع السلطة بين يدي فرد. ومما يذكر ان (الخطر العام) في روما هو الذي أوجد (الدكتاتورية) ولما زال هذا الخطر رجع (سنسناتوس) الى محرائه

وشوهد أيضاً في البلدان التي تعشقت الحرية ان الحرب هى التي اطلعت الجبابرة المستبدين، وكان بدء أمرهم في الغالب ان وقفوا حماة الوطن مدافعين عنه. ولا غرابة، فالعدو القوي المرهوب يوجد مثل (يوليوس قيصر) عند جيرانه

ويقال اجمالا ان الأمم التي اضطرت بمركزها الجغرافي الى البقاء متأهبة للعدوان اتخذت الملكية المطلقة حكومة لها. أما البلدان المتسعة الرقعة المفتحة للغارات المعرضة للثورات الداخلية فتجدها (اوتوقراطية) كما شوهد ولا يزال مشاهداً في الشرق

واما البقاع المحدودة المحمية بالجبال فالغالب ان تكون جمهوريات صغيرة حرة كما كانت اليونان في الازمنة القديمة وكسويسرا الآن

ولا يعرف الرحل شيئاً من جبروت الحكم اذ ليس لهم من بلاد يدافعون عنها ويرتبطون بها. والمثل على ذلك التركمان الرحل فانهم لا يستطيعون الاذعان لرئيس

والصناعة بعد الحرب من أقوى العوامل التي فعلت في شكل الحكومات ان لم نقل انها ولدت اشكالا بنفسها، لان الثروات الأولى التي انتجتها، وما بني عليها من فقدان المساواة بين الناس، أوجد السلطة بعين السرعة التي أوجدتها بها المعارك الاولى ولا فخر • فاتقان أدوات الانسان رقى الصناعة عند الجماعات الاشتراكية الأولى فاخرج مهرة الصناع والزراع أكثر مما تمس اليه الحاجة الشخصية، فبادلوا به وباعوه فاستحدثوا لانفسهم ثروة. وصار المثرون طبقة اجتهدت في حماية املاكها من عدوان الفقراء وأهل الطمع، فوضعت القواعد والقوانين لذلك، فكانت هي الحكومات، ولكنها غير الحكومات التي ولدتها الحرب، لان السلطة عند الامم الصناعية أقل حصراً منها عند الأمم الحربية

ولقد جعلت الثروة الاستعمارية في (صور) من تجارها أمراء كما قال (ايسايي) واطلقت لهم ولاصحاب السفن كثيراً من السلطة في المدينة مع وجود ملوك لها اسوة بسائر بلاد فينيقية • ومما يذكر مثلا من الحكومات التي ولدتها الصناعة : حكومة البندقية التجارية، وجمهورية البلاد الواطئة

ولابد ان ترى من النظم ـ في اصول الحكومات التي ولدتها الصناعة ـ ما يختلف عما يرى في الملكيات الحربية • فالحاكم في الاتوقراطية الحربية ليس له من خصم في الأمة • ولكنه في الحكومات الصناعية متعدد الخصوم بتعدد رجال الارستوقراطية الصناعية كما كانت الحال في (صور) المذكورة فيما سبق • ولذا لا يجد محيصا عن الارتكان على الشعب، قل عليه حيف الارستوقراطيين ام كثر

ولاحظنا فيما سبق ان البلاد التى لا تباشر الحرب لا تعرف السلطة الملكية
ونلاحظ الآن ان الذين يجهلون الصناعة لا يدرون ما الحكومة المنظمة مثل
(الفويجيين) في أمريكا الجنوبية و (البوشمانوالهوتنتو) في أفريقية ، ولو عد
الاخيرون من الرعاة – وعندهم نوع من ارستوقراطية ملاك الماشية – فلهم
من النفوذ بقدر مالهم من القطعان ، ولكن الحرب اذا نشبت أمر (الهوتنتو)
عليهم أميراً وقتياً تنتهي امارته بانتهاء الحرب

يرى من جميع ماتقدم ان الحرب والصناعة كانا اذن المصدرين الاساسيين
لكل حكومة ، فتطورهما على مر العصور محدد لتطور الانظمة السياسية .
الا ان هناك مصدراً ثالثاً نعنى به المعتقدات الدينية التى – وان جاء تأثيرها
متأخراً عن تأثير المصدرين الاولين – لا شبهة في انها لا تقل عنهما عظمة .
ولا عجب ، فما دامت الأمم القديمة قد اعترفت جميعها بخضوع أمور الناس
لسيطرة القوات الرهيبة المستعلية على الطبيعة فمن الطبيعي ان يجري الناس
على أوامر الكهان العالمين بارادة تلك القوات المفسرين لمعجزاتها الواقفين على
ما يخفف ثورانها من الصلوات والدعوات. ومن الطبيعي أيضاً ان يجتهد الحاكم
الدنيوي في طبع أوامره بالطابع الالاهي ويحالف رجال الدين

وكثيراً مااختلطت السلطة المدنية بالدينية وبقيتا على اتحاد وثيق . فجميع
الملوك الاولين حاولوا تأسيس سلطانهم على اساس الاهي ، فكانت فراعنة
مصر تعبد بعد موتها ، وكان المقول عن (رومولوس وريموس) انهما ابنا
الاله (مارس) ، وكان (نوما) يستوحى (ايجريا) احدى ربات المياه
والغابات والجبال ويستمد منها النصح ، وكانت ملوك فرنسا تمسح بالزيت
المقدس وتطلب لاسراتها الحق الالاهي ، وسمى الصينيون امبراطورهم ابن
السماء ، واعتبر اليابانيون الميكادو ممثل الآلهة ، وسلم أهل الدولة على
ملكهم بتحية الآلهة فلا يخاطبونه الا وهم في الحضيض ، ويتلقون بصاقه في
آنية من ذهب . وهذه الخزعبلات وان بقى منها الى أيامنا – حتى عند بعض

الأمم المتحضرة - ينبغي لنا ان ندرك منها شدة ما تكون عليه عند الاجناس المتبربرة فنحكم - تبعا لما نراه من الاستبداد المطلق عند ملوك الزنوج في أفريقية - بأن لهؤلاء الملوك بعض صفات التأليه عند رعاياهم . وبان الوراثة والتقاليد القديمة قوت العبودية في الرعايا بحيث تؤدى بلا بحث أو مناقشة فيها ، فيعذب الملوك رعاياهم ولو لمجرد التلهي ، أو بقصد الدلالة على ان محض رغبتهم قانون لا يعارض فيه أحد

ولقد يرى الانسان ارادة الآلهة في اساس الحكومات عند جميع الأمم القديمة ، وهي هي التي جعلت تلك القوانين يابسة ثابتة تعارض كل تقدم ، الا انها لم تلبث ان أذعنت مع ذلك للتغيير البطيء الحادث في ظروف الحياة يوماً فيوماً . وسنرى عند الشعوب التي سنصف حضارتها في هذا الكتاب تفوق الحكومة الدينية وشدة سلطانها فكان المصريون يتلقون قوانينهم من رجال الدين وكان لهؤلاء الحكم على الملوك بعد وفاتهم . ومن الأمثلة أيضاً ان العبرانيين كانوا يعتقدون بان الههم يحكمهم رأسا وان موسى ويوشع والقضاة ثم الملوك بعد ذلك لم يكونوا الا مفسرين للاحكام وممثلين للاله . ولا ننسى أيضاً ما كان للكهان عند الآريين القدماء من النفوذ العظيم بدليل ما ذكرته كتب الدين (فيداس) من الهدايا الواجب على ملوك الارض تقديمها اليهم كلما أراد هؤلاء الملوك نجاح أي مشروع شرعوا فيه

ولم تتغير الحال عما ذكرنا بعد ذلك أيام ازدهار الحضارة اليونانية والرومانية فكان القانون المدني والقانون الديني ممتزجين ، نيرهما واحد يرزح تحته كل وطني وكان الفرد ضحية الجماعة وليس له أدنى شيء من الحرية الخاصة وكان آلهة المدينة على قدم التهديد والوعيد فلا بد من طاعتهم طاعة عمياء ، ولا مفر من استشارتهم قبل اعتزام أي أمر ، وانكار ذلك خيانة للأمة تثيرها كلها على الناكر الشاك ولو كان سقراط بعينه

بقي علينا - بعد ان دللنا على ان النظم السياسية لاية أمة انما نشأت عن

الحرب والصناعة ثم اثبتتها القوانين الدينية - ان ندل بلا تطويل على تطور هذه الانظمة في الدنيا ونصف التغييرات التي تناولتها . وسنكتفي هنا بالدلالة على الامور العامة الكبرى فنقول : ان هذه التغييرات تطابق تغييرات ظروف المعيشة البشرية وتقابلها ، خصوصاً عقب ترقي الصناعة

غير ان هذه التغييرات الضرورية لم تحدث قط عفواً وبسهولة . بل كان حدوثها بصعوبة وجهاد هو روح حياة الجماعات • ولا بد منه بين دوافع التقدم وجواذب الاحتفاظ بالقديم

ان الشعوب لا تعيش الا بشرط احترام تقاليدها ، ولا تتقدم الا بشرط معرفة التخلص - في الوقت الموافق - من نير هذه التقاليد اذا صارت عديمة الجدوى أو ضارة • وما أصعب حل هذه المشكلة التي يظهر للقاريء تناقض وجهيها فانها من أصعب المشاكل التي تتطلب الحل • والتاريخ مملوء بانقاض الأمم التى زالت لانها لم تعرف كيفية الوصول الى هذا الحل• وسنرى - عند درس مختلف عوامل الحضارة - ان لدرجة أهلية الشعب للتغير أكبر اثر في حياته • فاذا ضعفت هذه الدرجة منعته كل تقدم ، وحكمت عليه بالزوال امام الشعوب التي تعرف ان تتقدم • واذا زادت عن الحد افقدته كل تآلف وتماسك وأوردته الهلاك

ويظهر للانسان ان دور الحكومات - في جميع المدنيات الأولى - كان أعظم مما صار اليه بعد ذلك في الجماعات التي زاد ارتقاؤها ، والحقيقة انه أقل كثيراً • فتدخل الحكومة في شئون الوطنيين عند الأمم الاولى كان معدوماً على وجه التقريب ، لانها لم تفكر في السيطرة على صغائر تفصيلات حياة الافراد كما هو حادث في الجماعات الحاضرة فكان نفوذها قاصراً في العالم على القيادة العسكرية عند الشعوب الحربية ، وعلى التحكيم السلمى عند الشعوب الزارعة والراعية • ولم تكن تشتغل الا قليلا بالمصالح الخاصة المتروكة للأسر ، أولا تشتغل بها أصلا • اما الفكرة القائلة بأن الجماعة لها حق التدخل لمعاقبة مرتكبي الجرائم الواقعة على الافراد فانما جاءت بعد ذلك • وأول

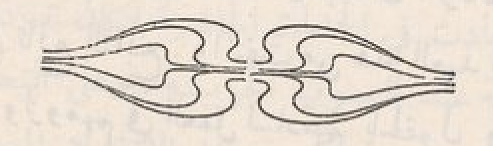
ما يتبادر الى الذهن طبعا ان الشخص المجنى عليه أو الأسرة الواقع عليها العدوان هما أحق وحدهما بالانتقام • ومن هنا جاء القصاص ، وهو اساس القانون الانجيلى • وينفذه المجنى عليه أو أقاربه ، ويوجد في كل قانون اولى • ولا تعاقب الجماعة الا الجرائم التي تهم القبيلة أو آلهتها • ووجد هذا الضرب من الحكومة الأولى عند جميع الشعوب المتوحشة التي لم ترتق فيها الصناعة

ولما تخلص الأوائل من الوحشية الى البربرية تغير نظامهم الاجتماعي فعرفوا القبيلة ثم العبودية ثم نظام الاقطاع • فكانت القبيلة منظمة مؤسسة على القرابة ، قد اختلطت فيها سلطة الرئيس بسلطة الابوة • ولما انضمت عدة قبائل بعضها الى بعض ـ بتأثير الضرورات الجغرافية والمشاركة الحربية ـ ظهرت الأمة • وما تأسست حتى اتخذت العبيد ، ونظمت أمورها على طريقة النظام الاقطاعى

ولا ريب في ان الحروب تغير شأنها أيضاً • فلم تعد عدواناً من قبيلة على أخرى ، تذهب به وقعة تنتهي بابادة الاسرى قرباناً للآلهة أو طعاما للمحاربين ، بل أصبحت أمرا جللا ، وغارة يشنها جنس برمته على صقع غني ليستولى عليه وينزل به . ويبيت المنتصرون سادة أرض واسعة وجماهير غفيرة مغلوبة • فلا يكون لهؤلاء السادة من فكر أو شغل الا الاحتفاظ بهذه الأرض والاستئثار بحاصلها • فيستخدمون فيها المغلوبين للزرع • وكذلك وجد الفتح العسكرى • ونشأ في النظام الاجتماعى طبقات الدرجات العسكرية . فمن قائد عام الى ضابط صف الى جندى . وقابلها من ثم الفاظ الملك فالسيد ثم التابع ثم تابع التابع . وانتفت من هذا العهد ابادة المغلوبين لنفعهم في احياء الصناعة ولزومهم في العمل لسادتهم بالحقول والمصانع كيما ينفسح الوقت للغالبين ، فيتوافرون على الكفاح أو على ترقية ذكائهم ، وهندمة فنونهم • فأصبح المغلوبون أعبداً كما حدث في (لاكونيا) أو خدما كما كان فلاحونا في القرون الوسطى

واذا ظهرت لنا العبودية والنظام الاقطاعى بمظهر البربرية فليس من ينكر ان فيهما تقدما عظيما على الوحشية القديمة . اما من حيث طراز الحكومة فيعد طرازها الحكومى اوليا لان المحكومين كانوا الى ذلك العهد احراراً يشتركون في تولى السلطة • نعنى ان كل مالك كانت له السيادة المطلقة على أراضيه فيفض مشاكله التي تحدث بينه وبين جيرانه _ والسيف في يده _ بلا تدخل من جانب الحكومة . وبقيت هذه الطريقة الى ايامنا هذه على وجه التقريب • فلا تزول الا يوم ان تقوم الصناعة الكبرى باستحداث ظروف معاشية جديدة تثل عرش العادات القديمة شيئاً فشيئاً الى ان يمحي منه الأثر

وانا لنجد في المدنيات الكبرى بالشرق القديم كل ماأوجزناه هنا . فنرى _ تبعا للامكنة والعصور _ حكومة المساواة الأولية للرعاة ، لاسلطة فيها لغير رب الأسرة ، كما كان عند الاسرائيليين في زمن ابراهيم الخليل ، والملكية المطلقة العسكرية عند الاشوريين ، وحكومة التجار عند الفينيقيين ، والنظام الارستوقراطى والاقطاعى عند المصريين • ولكن هذه الاشكال _ وان اختلفت _ تتشابه عند الشعوب التي وصلت الى درجة واحدة من الرقى ، لانها مظاهر الروح والحاج عند كل جنس في طفولته وشبابه وكهولته



الكتاب الثاني

كيف ترقى الامم الى الحضارة.

الفصل الاول

﴿ تأثير البيئات والاجناس ﴾

تمثل الشعوب المختلفة - الموجودة الآن في المسكونة - جميع درجات التطور : من الوجود الحيواني البحت والوحشية الاولى ، الى ارقى درجة من الحضارة . ومن هذه الشعوب من يمضي في التقدم باستمرار كالاوربيين ومن يظهر انه بلغ الحد الاقصى لرقيه الطبيعي وقدر له ان لن يتقدم خطوة الى الامام كالصينيين المحصورين في اشكال اجتماعية خالدة في الظاهر • ويدلنا التاريخ من جهة أخرى على اجناس عاشت رفيعة سامية عدة قرون ثم انحطت رويدا رويدا وادى بها التطور العكسي الى الدمار • فنتساءل عن اسباب هذه الظاهرات ونقول لماذا لم تمش الشعوب جنبا لجنب في طريق مفتوح للجميع ؟ واية قوة خفية وقفت بعضها عند الخطى الأولى ، ودفعت بالأخرى في سير حثيث ، واسقطت غيرها سقطة لا قيام منها ، وأمسكت بسواها في سكون ابدي ؟

ان العوامل المحددة لتطور أي شعب من الشعوب كثيرة العدد ، ولها كلها أهمية كبيرة : فمن الخطأ الالتفات الى واحد أو اثنين منها فقط كما فعل الكثير من المؤرخين ، اذ عزوا الى عامل أو عاملين تأثير مجموعة من العوامل. وجرت العادة الى اليوم برد أكبر حوادث التاريخ الى اسباب بسيطة فسهلت مهمة المؤرخ فكان لا يحار في ايضاح اية ظاهرة من الظاهرات وامامه سهولة نسبة الامور الى تدخل قدرة عليا ، أو الى مؤثر واحد كالبيئة ، أو سلطان عظماء الرجال • وهذا خطأ يشبهه خطأ الرياضي الذي يريد ان يخبر عن سير متحرك خاضع لجذب عدة اجسام ، فلا يلتفت الا الى جذب واحد منها فقط

وسنعدد هنا أهم عوامل التطور في الشعوب ، ونجمل درس تأثيرها ، ونجتهد في ابانة قيمة كل منها فنقول : ان أهم هذه العوامل في نظرنا : البيئة ، والجنس ، والوراثة ، والصلاحية للتحول والتغير ، ورقي الزراعة والصناعة ، وتنازع البقاء ، ونفوذ عظماء الرجال ، وسلطان الاماني والمعتقدات

١
تأثير البيئة

ونبتدىء بدراسة « البيئة » فنقول : ان من الصعب المغالاة في تأثيرها في الانسان ، ولكن من السهل المغالاة في تأثير أحد عناصرها ، ونعني به المناخ الذي بالغ فيه معظم المؤرخين واشتغلوا به دهراً طويلا لانهم لم يعرفوا غيره ، فعزوا اليه الاثر كله ، فكانت البرودة أو الحرارة الأصل في مميز الجنس ، وفي لون جلده ، وفي اخلاقه ومواهبه • وكان الترمومتر أو مخبار الحرارة آخر ما يلاذ به للاستشارة كلما أريدت معرفة شعب ما

ووقع في هذا الخطل بعض ذوي العقول الكبيرة مثل (مونتسكيو) اذ قال هذا الفيلسوف الفاضل ما نصه : « تجد في الأقاليم الشمالية شعوباً قليلة المعائب كثيرة الاخلاص والصراحة • فاذا اقتربت من الجنوب خيل اليك انك بمعزل عن القانون الأدبي الاخلاقي ، فرأيت الشهوات الشديدة ، وكيف تفعل في زيادة الجرائم • فكل فرد يجدّ في منازعة اخوانه جميع المزايا التي تعزز هذه الشهوات • اما في البلاد المعتدلة فانك تجد الشعوب غير مستقرة على شأن من شئونها - لا فرق في ذلك بين المساوى والمحاسن - لان المناخ هناك ليست له صفة محددة تحديداً تاماً تقر الأهلين على حال »

هذا كلام (مونتسكيو) ولكن العلم الحديث لا يكتفي اليوم بامثال هذه التعميمات المبهمة • فمسألة تأثير البيئة وتكييف الاحياء بها من أدق المسائل في التاريخ الطبيعي بحيث ابتدأنا اليوم فقط في ادراك مداها ، فلا نتكلم عنها الا بايجاز ، ونكتفي بالدلالة على تعقيد ما ظنه (مونتسكيو) واضرابه سهلا ، فنفصل بعض العناصر التي تدخل تحت عمومية اسم البيئة ونذكر تأثير كل منها ، ونبتدىء بذكر المناخ فنقول :

لوحظ تأثير المناخ من زمن (ابقراط) • ومن الأمور الحقيقية عموما ان المناخ البارد الجاف يزيد القوة والصلاحية للعمل ويقوى الارادة ، وان

المناخ الحار الساخن يحدث الكسل والميل الى الراحة والمسرات الهينة ، ويدعو الى الخوف من أي مجهود • ولا عجب ففى البلاد الحارة توجد الشعوب التي تخضع أكثر من غيرها لجبروت سادتها مثل الهندوس وعدتهم نحو ٢٥٠ مليوناً يصدعون اليوم بأمر ثلة من رجال الجنس القوى الانكليزى السكسوني

ولكن المناخ جزء من البيئة وبجانبه فيها عناصر أخرى • وليست درجة الحرارة الكل في الكل • وهناك اليبس ، والرطوبة ، والارتفاع ، ومقدار النور ، ونوع الهواء ، والاتجاه العادى للرياح • • • الخ ، وكلها تدخل في تكوين المناخ ، ولكل منها أثر خاص في نفس المرء وجسمه

ان صفات أهل الجبال لا تشابه صفات سكان السهول أو نزلاء الجزر : فالأولون قليلو الميل الى مخالطة الناس ، قد اعتادوا ارتقاء الحزون الضيقة بمفردهم والعيش بعيداً عن الطرق الكبرى التي تسير فيها الجماهير ، فكان من طباع الجبليين الصمت والقناعة • واما سكان السهول فأهل فرح وبشاشة وايناس • وترى نزلاء الجزر قد اعتادوا رؤية البحر فاغرموا بالتجوال وهاموا بالاسفار البعيدة • ولذلك كانت الشعوب التي تسكن الشواطىء لا تكف عن السياحات وتعاطى التجارة كالفينيقيين والهولنديين ، وهذا بسبب اتساع مستعمراتهم . اما السويسريون والاسكتلنديون فمن الشعوب الجبلية ولذا تجد فيهم الشدة والقناعة وقلة الاتصال بغيرهم والغيرة على حريتهم

ولليبس والرطوبة تأثير كبير ففى البلاد الكثيرة المياه توجد الاجناس الرزينة البطيئه كأهالى البلاد الواطئة في أوربا ففيها الضباب الدائم يدعو النفس الى التفكير والاحتجاب • وهذا عكس الهواء الجاف القوي فانه يطلق من الاجسام والعقول ، ويعين على تكوين اجناس خفيفة مرنة ايجابية عصبية تياهة كالجنس الاغريقى

وللمناخ تأثير مباشر في حاصل الأرض ، وبه يؤثر أيضاً في الانسان • وسيمر بالقارىء فيما يلي فعل حاصلات الارض في ظروف العيش والنظم

الاجتماعية للشعوب. ونكتفي الآن قولا بأن هذه الحاصلات اذا زادت كثيراً أو نقصت كذلك أدت الى أثر سيء. فزيادتها وميسرة الحصول عليها تدعو الى الكسل والتراخي وتمنع التقدم، وقلتها توقع الانسان في الجهد فلا يتوافر التوافر الكافي على استخدام ذكائه للرقي

وأثر النور يعد أيضاً من عناصر المناخ. واذا كان تأثير الضياء في تركيب الانسان أقل منه في النباتات فليس هناك ما يمنع مقارنته به، فالنبات المربى في الكهوف يكون ضئيلا مشوه اللون لا يعيش طويلا، وجلد الانسان يسمر من الشمس

ولقد أرادوا نسبة وجود الاجناس السوداء الى شدة أثر النور الباهر، وليس لدينا من برهان على ذلك. ولكن الذي نسلم به هو ان تلون الزنوج اذا كان بفعل الشمس فمرجعه الى سطوع الاشعة لا الى حرارتها، لانك اذا صعدت من خط الاستواء الى ناحية القطب رأيت الوان الاجناس تصفو مع صفاء لون شعرها وعيونها، ويرى هذا الصفاء حتى حدود الأقاليم القطبية. وهناك ترى الشقرة الموجودة في أهل (اسكنديناڤيا) قد انقلبت الى سواد في شعر الاسكيمو واللابون وفي عيونهم، فتقول اذا كانت تلك الاقاليم خالية من الحرارة فان انعكاس اشعة الشمس على الثلوج يحدث فيها نوراً باهراً

وللنور أثر في الصفات المعنوية للانسان أكثر منه في جسمه، وقد كان (غوته) يقول وهو يجود بروحه «أريد نوراً، أريد نوراً» ولزوم النور كلزوم الاوكسيجين في الهواء. وفي البلاد المنيرة الكثيرة الضوء يتفتق الذهن ويستيقظ التصور ويخف العمل. وفي البلاد المظلمة يخيم الأسى على القلوب ولا يجيء الشعراء فيها الا بأحلام مضطربة متكلفة. وما أكبر الفرق بين ظلمة الأساطير السكسونية والنورماندية وأساطير اليونان البهيجة، أو بين أغنية القبائل الاسكوتلندية ـ ومبعثها السويداء ـ وبين السرور من فعال

(دون كيخوتي (١)) و(رولان الحردان) . ولاجدال في أن مواطن الفلسفة الزاهية انما هو بلاد الشمس ، وان المسرات -تحت سماء البلاد الشمالية الدكناء- لا تخلو مما يشوبها

و تبعث المناظر الطبيعية الهائلة في تصور الناس غير ماتبعثه المناظر اللطيفة المعتدلة . فحاصل الأدب والعمارة في الهند لا ترى فيه الا الجسم الهائل المتخالط حتى في الفخم منه . وذلك لأنه تولد أمام طبيعة عظيمة تحت أعلى الجبال في العالم ، وعلى شواطىء اقيانوس مترامي الأطراف ، وبمشارف غابات ترتد عنها الأبصار حسرى . وهذا على عكس الفنون الاغريقية التي تجلي فيها الانسجام وظهرت البساطة لأنها تولدت في قطر منير الأجواء ضاحك الأرجاء ليس فيه ما يخفى وما يرهب

بعد أن تكلمنا على أثر المناخ - من حيث ما ذكرنا - نعود فنتكلم على أثر الأرض وحاصلاتها أيضاً فنقول : ان أثرها في الانسان من الآثار الرئيسية لا في أول أمر الحضارة فحسب بل في زمن مديد من عصر التاريخ . ولكن اذا تجاوز الانسان الماضي الى العصور الحديثة - التي يمكن القول بأن الانسانية ترمي فيها الى بلوغ حضارة واحدة - رأي ان تأثير الأرض وحاصلاتها قد نقص بعض النقص لميسرة النقل وسهولة أسبابه

وقد كان هـذا التأثير رئيسياً كما قلنا في أول الحضارة وقبلها على وجه أخص فكانت الأراضي هي المحددة لأسباب العيش وللنظم السياسية والاجتماعية عند الشعوب . ومن السهل الدلالة على ذلك بالشعوب التي كانت تقطن الغابات والمراعى والشواطىء البحرية ومختلف الأراضي المزروعة . واذا تعذر علينا هنا ان نذكر جميع الأحوال الخاصة فانا نكتفي بذكر مثلين مميزين : الأراضي المغطاة بالغابات ، وأراضي الحشائش . فالأولى أعانت

(١) هو فارس نبيل اسباني تسلطت الاوهام على عقله فصار يظن طواحين الهواء جبابرة ويهاجمها . ويسمى بالافرنسية (دون كيشوت) وبالانكليزية (دون كيكسوت) . ونقلت نوادره الى العربية بقلم السيد عبد القادر رشيد وطبعت بالمطبعة السلفية بمصر

الانسان على العيش بما تحويه من الصيد ، والثانية بنتاج القطعان التي تربى في مراعيها يوم ان كانت الزراعة غير لازمة أو مجهولة أو في بدء شأنها . فتولدت من هذه الظروف المعاشية انظمة اجتماعية غاية في الأهمية عند جميع الشعوب التي سكنت أماكن متشابهة مهما تباينت اجناس هذه الشعوب

خذ البلاد الغابية في أمريكا الجنوبية مثلا تجد انها اعانت الانسان بصيدها ولكن على معيشة الكفاف . وبسبب ضئولة الموارد قل عدد الأسر وتفرقت وتباعدت منازلها ، وتذرع الفرد منها في شبابه بقوته ومهارته لاكتساب ما يكفي نفسه من الطعام ، فلما أسن قل اعتباره وتركه ذووه أو قتلوه تخلصاً من اطعام من لا ينفع . ولما كان رب الأسرة لا يؤدي لها شيئاً من الخدمة فليس له من السلطة الا النزر اليسير الذي أبقاه له تأثير التقاليد

وكثر التنازع على أراضي الصيد فعاشت الأسر في عراك دائم . ولما كانت الحرب المجدية لا تباشر بغير الرجال والنظام اضطرت الأسر الى الاجتماع قبائل تحت سلطة رئيس لا مندوحة من ثقل وطأته ، ففدت السلطة مركزية . ومثل هذه الظروف المعاشية لاتمكن الخاضع لها من اطراح البربرية وكذلك كانت حال معظم بلاد الغول وقت الاغارة الرومانية ولولا اجتياحها لما خرجت من بربريتها . وبناء على ما تقدم نقول ان الشعوب الصائدة لا تستطيع سلوك سبيل التقدم الا اذا دهيت بفاتح

وليس عند الشعوب الصائدة من زيادة في السكان ولذا لا تجنح الى المهاجرة ولو كان أصل سكان العالم صياداً لبقى كثير من بقاع الارض خلاءً الى يومنا هذا

أما ظروف المعاش والأنظمة عند الشعوب النازلة في المراعى كالمراعي الشاسعة الموجودة غرب أوربا وفي أواسط آسيا فتختلف عما سبق كل الاختلاف ، فسكان هذه الاصقاع لا يزالون متبربرين ولكنهم برابرة الجأتهم ضرورات الهجرة الى الانتشار في العالم فغيروا أماكنهم وظروف معاشهم تبعاً لمقتضيات

بيئاتهم الجديدة ، ومن بقي منهم في فيافيه لم يرق الى المدنية فلما زايلها تحضر
ولا يعيش سكان المراعي الا من نتاج القطعان . وطراز عيشهم هذا هو
الذي أوجد عندهم الأسرة بنظامها البطريركي ومثالها ما وجدناه في التوراة .
وقد تعددت في هذه الأسرة الأعمال فاشتغل كل فرد منها بعمل وتشارك
الجميع في الثروة على اختلاف انواعها من القطعان الى أدوات الانتاج الى
الأرض اذا كانت ذات نبات . وخضع جميع أعضاء الأسرة لسلطة رئيسها .
فالوحدة الاجتماعية الحقيقية ليست الفرد كما هي عند أهل الصيد بل الأسرة
التي يتفرد بادارتها الاب فيكون الرئيس الديني والقاضي والحاكم وله جميع
الدرجات الاجتماعية والحرمة التامة . ومثل هذا الظرف لا محل فيه للحكومة
المركزية لأنها كانت قاصرة على ادارة الأعمال الحربية وقت الحرب وعلى حماية
مظهرها اسماً في بعض الأحيان بفرض جزية تدفع وقت السلم

ومن مزايا الشعوب الراعية دوام التنقل ، ولذا لم نجد عندها ملكية
الأرض . فكلما أتت قطعانها على مرعى رحلت عنه وطلبت غيره . ومادامت
هذه الشعوب في سهولها الفسيحة - على ما بها من عادة الرحلة - فهي لا تتقدم
لأن حاصلات قطعانها ونتاجها تسد حاجتها فلا ترى ما يبعثها على تغيير
طراز عيشها

وقد كان من عظم شأن السلطة الأبوية عند الشعوب الراعية ان ثقل
عليها نير التقاليد فلا مفر من رزوحها تحته ما دامت في أرضها ، كما كانت
الحال في زمن ابراهيم الخليل بآسيا . وكما نجدها الى اليوم عند الرعاة ، ولكن
الضرورات القصوى أرغمت كثيراً من الشعوب الراعية على الهجرات الدورية ،
ونعني بهذه الضرورات تكاثر نسلها وازدياد عددها من جراء سهولة العيش ،
خلافاً لما عليه الشعوب الصائدة

وظاهر انه كلما زاد التزاحم على موارد العيش وجبت الهجرة ، ولا أسهل
منها على الشعوب الراعية ، اذ تدفع بقطعانها امامها وتحمل معها جميع ما تملك

ولا تفكر في العودة ، ففي كل مكان حلت اتخذت وطناً ، لأنها ليست بجيوش تضطر الى الاشتغال دائماً بوسائل تموينها وحماية قواعد اجراءاتها المتنقلة وانما هي شعوب على بكرة ابيها ظاعنة

وللشعوب الراقية قوة عظيمة جاءت من وفرة عدد رجالها وسهولة انتقالهم فلم تستطع اية امبراطورية الغلبة عليهم . واذا اغفلنا ذكر ملوك الرعاة الذين فتحوا مصر فهناك الغارات التي شنت على الصين والهند وأوربا وجاءت بالسكان للاراضي الخالية ، وكل هذه الغارات مما قام به الشعوب الراعية . وما كانت رئاسة جنكيزخان وتيمورلنك وأتيلا الاعلى قبائل من الرحل زحفت كالجراد المنتشر واجتاحت كل ما وجدته في سبيلها ، فلم يتيسر قتالها الا بعد ان وصلت الى اقطار لم تعد تصلح فيها معيشة الرحلة

يرى مما تقدم مقدار الأثر التاريخي للحاصلات الارضية في كيفية المعاش ، وفي النظم الاجتماعية للناس . وفي الوسع ان نذهب بالبحث بعيدا فنقول : ان الشواطىء البحرية مهد لشعوب خاصة تسود فيها الملكية العائلية وروح التقاليد يخالطها شيء من الميل الى الجديد . وتشاهد عندها الحاجة الى الهجرة كما تشاهد عند الرعاة ، الا انها مقصورة في أهل الشواطىء على الذكران من السكان

وقد ظهر أيضاً تأثير الحاصلات الارضية المختلفة في البلاد التي يعاش فيها من الزراعة . واستبان عند بعض الجماعات المختلطة كأهل اشور وكلدة مثلا كيف أوجدت العلاقات التجارية الثروة التي رقت الزراعة في اقطار كانت أرضها نزرة النبات وكيف حلت هذه الاراضي المزرعة محل الصحاري وقت أن زالت الثروة بتغيير المجرى التجاري ، وكيف قامت في الاراضي المذكورة الامبراطوريات الكبيرة

غير ان برنامج هذا الكتاب لا يمكننا من المضي طويلا في هذا السبيل ، فاكتفينا بايجاز القول هنا في بعض هذه المسائل الاساسية التي لم يفكر فيها

أحد من المؤرخين مع انها من أهم عوامل التطور في الحضارات والممالك

وبعد أن أطلعنا القاريء باختصار على تأثير الطبيعة الخارجية في الانسان نعود فنقول ان تأثير البيئة تعززه أو تضاده عوامل أخرى . فلا يكفي نقل جنس من بيئة الى أخرى لترى فيه المميزات التي عزوناها الى مختلف البيئات ، وانما يقال بالاجمال ان تأثير أية بيئة لا يظهر الا بغاية البطء . ولا يؤثر الا في شعوب فتية أو شعوب تجدد شبابها بدم حديث . وخفف شدة عمل الوراثة الاصلية عندها مؤثرات وراثية مضادة للأولى

ومن الخطأ ـ الذي أظهره العلم الحديث ـ الظن القائل بان الانسان يستطيع اعتياد كل مناخ وانه أهل للتكيف بكل بيئة . وحقيقة الواقع أن الجنس الذي ينحرف بعض درجات عن مناخه لا يسلم من الفناء . والدليل ان الفرنسيين ـ على امتلاكهم كل موارد الحضارة الحالية ـ لا يستطيعون تربية أولادهم في الجزائر ، كما لا يستطيع الانكليز تربية ابنائهم في الهند ، فيجبرون على ارسالهم الى فرنسا وانكلترا . وظاهر ان رجل البلاد الباردة لا يطيق الجو الحار . ولا ننسى ان مصر افتتحها عشرون شعبا من الشعوب المختلفة فكانت مقبرتهم جميعاً . ولم نعرف جنساً أجنبياً تمكن من تعود مناخها منذ ستة آلاف سنة ، وهي اليوم (عربية) ديناً ولغة ، ولكنها بقيت فرعونية من حيث الدم

ولا يتم العمل الذي يجعل به النبات أو الحيوان أو الانسان نفسه على وفق البيئة الجديدة التي وجد فيها الا ببطء كبير . وبشرط ان لا يجيء تغيير البيئة فجأة . فالسمك اذا أخرج توا من الماء مات ، أما اذا تعود شيئاً فشيئاً طرزاً جديدة من العيش فان تركيبه يصيره الى تركيب ذوات الأثداء

ولقد فعلت البيئات الطبيعية فعلها في أول عهد الانسانية خاصة ، وكان عملها غاية في الاهمية لتختلف الاجناس • ثم ركمت الوراثة أعمالها على توالي القرون ، فصارت مميزات وأخلاقاً لا تمحى • فما نراه اليوم من الاخلاق المغروسة في الاجناس انما ثبت بعد التنوع وتعزيز بعض الاسباب ومضادة

أخرى • بحيث أصبح لا يؤثر فيه تغيير البيئة ، فالهولندي سيبقى رزينا ولو كان بخط الاستواء ، والغسكوني سيظل ثوثاراً ميالا الى المبالغة ولو نزل القطبين

ولا تؤثر البيئة الطبيعية في جنس معين الا اذا اختلط هذا الجنس بجنس آخر قد وقع تحت تأثير البيئة الجديدة من اجيال • ويكون هذا الاختلاط بالزواج مثلا بعد الفتح أو الهجرة ، ففي هذه الحال تكون الوراثة محلولة العرى قد زال بعضها ، فتبدو قوة أثر البيئة على أشدها • واذا طال عليها العهد أخرجت جنساً جديداً يتناول مميزاته من الجنسين الاوليين

وما قلناه في الملاحظة الاخيرة ـ عن كيفية فعل البيئة الطبيعية ـ ينطبق على البيئة الادبية سواء بسواء ، فما البيئة الادبية الا الافكار والمعتقدات والتقاليد والعواطف التي جمعها الشعب في عدة قرون ودارت في نفسه وفي نفوس امثاله • واذا غير الانسان بيئته الادبية فان المرامي التي تسوقه اليها الوراثة تقوم بمكافحة المؤثرات الجديدة ، ولكن هذه المكافحة تخف عند أولاده ، وربما زالت وأمحت عند أولادهم • فالفرنسي الذي ينزل اليابان لا تطاوعه نفسه على ترك ابنته تجمع البائنة من البغاء ، مع ان هذه الطريقة مرعية في اليابان • ولكنه اذا ترك أولاداً واحفاداً تزوجوا من يابانيات ، وعاش جميعهم في اليابان ، فقد يمكن ان يرى خلفهم حسنا ما كان يراه السلف معرة ، بعد مضي بعض اجيال

ولقد يذكر القاريء اننا عند كلامنا على الدستور الادبي الاخلاقي كنا قد بينا قوة الرأي العام والعرف ، فهو صورة البيئة الادبية وجماعها ، ولا يستطيع أحد خروجا عن سلطانه • ثم انه لما كان وليد العوامل التى كونت الجنس شيئاً فشيئاً • فقد يكيف العقول على ما يقتضي • ويخضعها كل الخضوع أو بعضه لنيره

وجميع ما مر يفهمنا ترابط الاسباب المسيطرة على سير الاشخاص والاجناس والشعوب ، وكل سبب يؤثر في الآخر بحيث لا يتفرد أحدها

بالسيادة المطلقة • فلا ينبغي اذن الاقتصار على اعتبار كل منها على حدة • بل لابد في العلم الاجتماعي الصحيح من قياس تفاعلها وحسبان نتيجتها الموحدة ، كما نحسب القوة الموحدة الناشئة من جذب عدة اجسام لجسم واحد • ولا نزعم ان هذا في الامكان الآن ، فاذا تيسر فانما يكون بعد كثير من القرون

٢

تأثير الجنس

لمـا ظهرت الاجناس البشرية في التاريخ كانت قد اكتسبت مميزاتها وطبائعها التي لم تتغير بعد ذلك الا ببطء كبير • وأقدم الصور البارزة المصرية - الممثلة لاشكال الأمم المختلفة التي احتكت بالفراعنة - تدلنا على ان ترتيبنا الحالى لاجناس البشر كان ممكن التطبيق في أول زمن التاريخ

ان الاجناس البشرية - أو بالتعبير العلمى مختلف انواع البشر العائشة على سطح الأرض - قد تكونت اثناء مئات الألوف من السنين التي تقدمت الازمنة التاريخية • وتكونت - من غير شك - كما تكونت جميع الانواع الحيوانية بالتحولات البطيئة الناجمة عن اختلاف البيئات ، وانتقاء الانتخاب الطبيعى ، وبقاء الاصلح ، وتراكم افعال الوراثة • واذا عرفنا القوانين العامة لهذا التطور البطىء فانا لا نعرف تفصيلاته ، ولا نشتغل بها هنا . واذا اتينا بالاجناس التامة التكوين فمقصدنا الدلالة على عظم فعل الطبائع الادبية والخلقية في تطور المدنية عند الشعوب التي ارتقت فيها هذه المدنية • اذ لا بد - في فهم تاريخ الشعوب وأصل نظمها ودستورها الأدبي ومعتقداتها - من دراسة تركيبها العقلى قبل كل شىء

ومن الخطأ ان نبحث عن اسباب اختلاف الشعوب في المميزات التشريحية. كما لج في ذلك المتقدمون . لان لون الجلد أو الشعر أو شكل الجمجمة أو حجمها لا تأتي بغير تقسيم جاف . و (علم النفس) هو القادر وحده على ايضاح الفروق الحقيقية الموجودة بين الاجناس المختلفة ، وهو الذي يدلنا على

ان الشعوب التي تتشابه عقليتها تتشابه حظوظها اذا احاطت بها ظروف متشابهة ، مهما اختلفت المظاهر الخارجية لهذه الشعوب . ولهذا السبب يمكن مقارنة الانكليزي الحاضر بالروماني القديم ، فهناك مشابهة أو قرابة جلية بين عقلية الانكليز والرومان ، تخلقهما قوى لا يذلل ، واحترامهما لنظمهما ، وأهليتهما لتغييرها ببطء وبلا اضطراب ، وكفاءتهما في بسط السلطة على الشعوب والاحتفاظ بالمستعمرات واحدة ، مع ان مظهر الانكليزي يختلف عن الروماني اختلافاً تاماً ، لان الروماني غليظ قصير قوى برُنزي لون الجلد اسود العين والشعر ، اما الانكليزي السكسونى فمرتفع القامة مستطيل الوجه أبيض لون الجلد صافي العينين اشقر الشعر

ولا مندوحة لنا الآن من الاكتفاء بالتفرقة بين الاجناس البشرية بالمميزات النفسية ، الى ان تبيح لنا دراسة المخ والتقدم فيها معرفة الفروق الحية المقابلة لمختلف صيغ الشعور والفكر ، والمرجح اليوم اننا بعيدون عن هذه المعرفة جد البعد

والعنصران الاساسيان اللذان يجب فحصهما دائماً عند الشعب المراد تفهم احواله هما طبعه وذكاؤه . ونجاح أي جنس في هذا العالم يرجع الى طبعه أكثر مما يرجع الى ذكائه لان الشخص او الجنس يسير في الحياة بالطبع أكثر من الذكاء . خذ مثلا روما الساقطة فقد كان فيها من العقول النيرة أكثر مما كان بها في أوائل ازمان الجمهورية : كان فيها ابان سقوطها المتفننون المهرة والخطباء الفصحاء والكتاب المجيدون بالمئات ، وما كان يعوزها الا الرجال من ذوي الخلق الناضج القوى ، ان قل اهتمامهم ببدائع الذكاء فهمهم الأكبر قوة المدنية التى شادوا عظمتها . ولما فقدت روما من نعنى من امثال هؤلاء الرجال غلبتها على أمرها شعوب أقل منها في الذكاء بكثير وأكبر في البأس . وغير خاف ان فتح العالم القديم الاغريقى اللاتينى ـ المتعلم المتنخل ـ على يد قبائل عربية متبربرة يعد مثلا آخر من هذا النوع ،

والتاريخ ممتلىء بامثال ذلك ، وسيجيء المستقبل أيضاً بامثلة أخرى . وبناء على ماتقدم نقول : ان طبع الشعب أو خلقه له من المكانة أكثر مما لذكائه من حيث الرقي التاريخي ، اما من حيث مستوى الحضارة فالاولوية للذكاء . ومع هذا فعمل الذكاء لا يتم الا بشرط ان يكون مبدعاً لا ممثلا فقط ، فالأمم التي لها ذكاء ممثل ـ كالفينيقيين قديماً والمغول بعد ذلك والروسيين الآن ـ تستطيع ان تكتسب الحضارة الاجنبية عنها على قدر ما . ولكنها لا تتقدم بما تكتسبه ولا تبتدع . اما الشعوب المختصة بالذكاء المبدع ـ كاليونان في القدماء و (العرب) في القرون الوسطى ـ فاليها يرجع الفضل في التقدم العام الذي نفع الانسانية جميعها وافادها ، لا كالفتوح الحربية التي لا فائدة منها الا لشعب واحد

ولا غرابة فيما ذكرنا ، فترقي الذكاء المبدع ـ نعني خاصة تأليف الافكار ورؤية مشابهاتها البعيدة والفروق بينها ـ انما هو المرجع لكافة المكتشفات ، وهي الموهبة التي مكنت (نيوتن) من ادراك الشبه بين سقوط تفاحة وجاذبية كوكب ، وأفهمت (فرنكلين) التشابه بين الشرارة الكهربائية والصاعقة

وأقل ملاحظة سطحية تدل على ان افراد أي جنس يختلف بعضهم عن بعض منظراً وخلقا وعقلا ، ولكن التدقيق يبين ان تحت اختلاف الظواهر مجموعة من الاخلاق مشتركة بين جميع افراد الجنس ، ثابتة فيهم ، تسمى في مجموعها « الطبع القومي للشعب » فاذا تكلمنا طبيعياً أو أدبياً عن انكليزي أو ياباني أو زنجي اختصصناه في الحال ـ ونحن على صواب ـ بمجموعة من الملامح العامة هي مركز طباع النموذج الوسط لجنسه ، ونفعل هذا عفواً مع انه عين ما يفعله العالم الطبيعي الذي يصف نوعا من الحيوان ، فاذا وصف كلبا أو جواداً ، انتخب الطباع العامة التي تطبق على مختلف اجناس الكلاب أو الخيل

وللطباع القومية المتولدة عند الشعوب المتشابهة ـ باستمرار فعل البيئات والنظم والعقائد الواحدة وقتا طويلا ـ دخل اساسي في حياة هذه الشعوب

ولو خفي عن الابصار ، فهي تمثل ماضى الجنس برمته ونتيجة تجارب اسلافه واعمالهم ، ولا يجىء شخص الى الوجود الا ومعه من هذا الميراث ، فيعيش ما يعيش ولماضى اجداده الاثر الكبير الدائم في جميع اعماله ، وليس طبعه أو مجموع العواطف التي ترشده في الحياة الا صوت اسلافه ، وما أقوى صوت أولئك الاموات فالعقل لا يغلبه مهما ضاده ، وما أعظم ثقل الماضى وأكبر أثره ، على قلة شأن فعل البيئة في حياة الفرد القصيرة : فاذا أريد فهم تطور شعب فاحق أموره بالدرس تاريخه بعظم نفوذ الماضي ، وفي ماضى هذا الشعب يبحث الانسان عما يوضح له حاضره

وهناك أجناس بشرية كما توجد أنواع حيوانية ، في بعضها اختلافات كثيرة وفي الاخرى اختلافات قليلة . وكلما قلت الاختلافات في الجنس - أو كلما قل بعد هـذه الاختلافات عن النموذج الوسط - كثر تماثل هذا الجنس مثل الانكليزي الحالي الذي أمحى فيه البريطاني والسكسوني والنورماندي نخرج نموذجاً حديثاً مميزاً

واذا تحاذت الجماعات ولم يختلط بعضها ببعض اختلاطاً كافياً بقي الجنس متنافراً ، وتعذر تعيين النموذج الوسط لقلة عدد الملامح المشتركة التي تكونه ، فالبروفنسي في فرنسا يختلف عن البيكاردي ، والاوفرني عن البورغوني • ومع هذا فاذا عز وجود نموذج وسط الفرنسي فهناك نماذج وسطى لبعض الاقاليم غير انها على شيء من الانفصال من حيث الأفكار والطبع . وعلى هذا فمن الصعب ايجاد أنظمة تلائمهم جميعاً . وليست اختلافاتنا معاشر الفرنسيس - في الأفكار والمطالب والعقائد - الا بسبب اختلافات تركيبنا العقلي ، والمستقبل وحده ربما استطاع محو هذه الاختلافات

ومن السهل أن ندرك كثرة وجود الافكار والعواطف المشتركة كلما كان الجنس متماثل الافراد . وفي هـذه المشاركة تكون قوته وبعثه على المضي بسرعة في سبيل التقدم . اما اذا تنافرت الافكار والتقاليد والعقائد

والمنافع فلا مفر من كثرة الانقسامات ، ومن بطء سير التقدم أو مضادته •
وليس في الآراء أشد بطلاناً من فكرة اخضاع الأجناس العظيمة الاختلاف
لنير واحد ، فانه ـ مهما ثقلت وطأته ـ لا يكون سلطانه الا وقتياً ، وتاريخ
الامبراطوريات الكبرى ـ المؤلفة من اجناس متباينة ـ خير شاهد •
فأمبراطوريتا اسكندر وشارلمان تفككت أوصالها بمجرد زوال اليد القوية
المؤسسة التي كانت تمسك بجماع هذه الأوصال . واذا كان الهولنديون
والانكليز قد نجحوا حديثاً في اخضاع شعوب أسيوية تغايرهم كل المغايرة فما
ذلك الا لأنهم احترموا العادات والتقاليد والقوانين التي وجدوها عند هذه
الشعوب ، وتركوها تدير أمورها بنفسها ، وقصروا همهم على أخذ جزء من
الضرائب وتعاطي التجارة وحفظ السلم

وتتضح مما تقدم اهمية دراسة تأليف الشعب لايضاح تاريخه . وقد
ظهر أيضاً أن كلمة « شعب » لا يمكن أن تكون مرادفة لكلمة جنس ،
فالامبراطورية والشعب والحكومة تطلق على عدد ـ قل أوكثر ـ من الرجال
جمعتهم الضرورات السياسية أو الجغرافية فخضعوا لأنظمة وقوانين واحدة .
وقد يكون هؤلاء الرجال من جنس واحد ، كما يمكن أن يكونوا من أجناس
متباينة • فاذا كانوا مختلفين استحال اندماج بعضهم في بعض وان عاشوا
بمحض الضغط جنباً لجنب كالهندوس الخاضعين للأوربيين . وعلى هذا فلا
ينبغي أن يحلم انسان باجرائهم على نظم مشتركة .ولا تستطاع اقامة الامبراطوريات
الكبرى المؤلفة من شعوب متغايرة الا بالقوة ثم لا تلبث أن يودى بها
العنف ، ولا يبقى الا الامبر طوريات التي تتكون ببطء من تخالط الاجناس
القليلة الاختلاف تدريجاً بحيث يحتك بعضها ببعض دائماً وتعيش بأرض واحدة
تحت تأثير مناخ واحد ولها نظم وعقائد واحدة واذ ذاك تستطيع هذه
الأجناس أن تكون جنساً جديداً متماثلاً بعد بضعة قرون

قال المؤلف : « ان كيفية اندماج العناصر المختلفة في جنس واحد من

الأمور القليلة الوجود . وقد لاحظتها مع ذلك في احدى سياحاتي عند أناس من أهل الجبال في أقصى غاليسيا تحت جبال تتراس وكتبت مذكرة بذلك ضمنتها ملاحظاتي فأثبتتها الجمعية الجغرافية الباريسية في نشرتها » اه

وكلما تقادم عهد العالم وازداد ثبات الأجناس على مابلغت اليه ندر تغيرها وتحولها بالاختلاط ٠ ولا غرابة ، فقد كان الماضي الوراثي للانسان – في زمن ماقبل التاريخ – غير طويل ٠ ولم تكن له نظم معينة وظروف عيش مطمئنة ، فكان للبيئات أكبر اثر فيه ٠ أما اليوم فقد يسرت الحضارة للانسان التخلص من معظم تأثير البيئات ، ولكنه لم يستطع ازالة تأثيرها في ماضية ، فثقل الوراثة يزداد وزناً كلما تقدمت الانسانية في العمر ، وهو اليوم بحيث لا يمكن ان تكافح الوراثة الا بالوراثة ، لأنها القادرة وحدها على فصم عرى الطباع الثابتة في جنس ما بمواجهتها بضدها من الطباع

ولكي تفعل الوراثة فعلها في خلط جنسين بعضهما ببعض يجب أولاً ان لا يكون أحدهما أقل عدداً من الآخر بكثير ، ثم ينبغي أن لا يكون للجنسين تركيب عقلي أو جسمي غاية في التنافر

والشرط الأول اساسي لأنه اذا وجد جنسان مختلفان في صعيد واحد استغرق اكثرهما عدداً صاحبه ، كما تختفي بضع اسرات من البيض ويضيع أثرها في شعب من السودان ، وكما جرى لجميع الفاتحين – الأقوياء بالسلاح الضعاف بالعدد – وما سلم من ذلك الا الآريون قديماً والانكليز حديثاً . وسبب السلامة ابتداعهم نظام (الفريق) ، فان شدة هذا النظام وقسوته منعتا اختلاط الغالبين بالمغلوبين ٠ الا أن نظام (الفريق) انما يعد من الشذوذ والقاعدة العامة ان تحدث المخالطة فيستغرق الشعب المقهور الشعب الغالب بعد قليل من الأجيال ولا يختفي هذا الغالب الفاتح الا بعد ان يترك آثار حضارته ، فمصر لما افتتحها العرب لم تلبث ان استغرقت فاتحيها ، ولكن هؤلاء ابقوا لها اهم عناصر الحضارة ، نعني الدين واللغة والفنون . وحدثما

يشبه هذا بأوربا ، فيما يختص بجنس الشعوب المسماة لا تينية ، كالفرنسيين والايطاليين والاسپان ـ وحقيقة الأمر أن عروقهم خالية من أية قطرة من الدم اللاتيني ، ولكن النظم الرومانية لما كانت غاية في القوة ، وكانت سلطة الحضارة الرومانية غاية في الشدة ، بقيت البلاد التي احتلها الرومان قروناً لاتينية لغة ونظماً ، واختصت بالعبقرية الرومانية

وليس الشعب القوي هو الذي يفرض مدنيته على الشعب الضعيف ، فالغالب العكس وهو ان المقهور هو الذي يحتم حضارته على الفائز . والمثل على ذلك شعوب الفرنك فقد تغلبت على الجماعات الغالية الرومانية بالسلاح ، فتغلبت عليها هذه بعد ذلك أدبياً ، ثم طبيعياً أيضاً اذ استغرقتها بكثرة عددها

ويرى تغلب المخذولين على المنتصرين بهذا الشكل أكثر مما تقدم فيما كان من الشعوب الاسلامية ، فما اضمحل السلطان السياسي للعرب وتلاشى أمره الا وأخذت دياناتهم ولغتهم وفنونهم في زيادة الانتشار ، وأهلها الآن نحو ٥٠ مليوناً في الهند و ٢٠ مليوناً فى الصين ، وسيكونون في أفريقية بعد زمن ما ممدني هذه القارة الشاسعة

واذا أوجدت اتفاقات الغارات والفتوح جنسين متباينين في مكان واحد فليس من الممكن ان يندمجا بالقوة . والا كانت النتيجة القضاء على الجنس الضعيف ، فارلندا التي افتتحت منذ أجيال مضت لم تخضع قط . ولكن سكانها في تناقص مستمر . ويشتد هذا النقص كلما كان الشعب من الشعوب المنحطة ، كما حدث في (التسمانيين) اذ لا نعرف اليوم واحداً يمثل جنسهم وسينتهي أمر ذوي الجلود الحمراء بمثل ذلك . فكل شعب منحط يوجد بازاء شعب راق لا مفر له من الهلاك ، ولا داعي للابادة المقصودة والقتل العمد ليتم الدمار ففي مجرد وجود الشعبين وجهاً لوجه كل الكفاية

الا ترى ان الشعب الراقي لا يحل ببلاد بربرية ومعه صيغ وجوده

المتشعبة ووسائل معاشه المتعددة الا ويجمع في يده جميع موارد القوة ويخضعها بسهولة وسرعة لم تكونا قط للأهالي الأصليين فيصبح هؤلاء – بعد ان كانوا سادة مواردهم – لا تصل أيديهم بعد الجهد الى أكثر من فتات موائد المنتصرين . وتتدلى بهم الظروف بحيث يقضون جوعاً اذا لم يحصدهم الحديد أو تودى بهم المساويء التي يجيئهم بها الوافدون

انقطعت المذابح الدورية للهنود في أمريكا الشمالية أو كادت ، ومع هذا فأرباب الجلود الحمراء لا يزالون يتقهقرون ويتناقصون امام الجنس الابيض وما ذلك الا لأنهم خاضعون لقوانين وراثية أصبحت من ثقل الوطأة بحيث لا تمكنهم من تغيير ما بهم ؛ فلا يعرفون العيش من غير الصيد ولا يريدون سواه ، فلما احتاز الانكليزالسكسون اراضي الصيدالقديمةومهدوهاوزرعوها لم تبق لهنود امريكا مواردهم القديمة . وأنكى من هذا انهم لم ينتفعوا بشيء مما أعطوه من الحقول والمنازل المشيدة فقد اسكنوا بها خيولهم وبقوا تحت الخيام كما كان آباؤهم ، وآثروا الموت على انزال المحراث من أيديهم منزلة السلاح

واذا اختلط جنسان مختلفان لا تساوي بينهما في درجة التهذيب فلا خطر على الجنس المنحط . بل الخطر كله علي الراقي ، لأنه يصير الى الزوال ويحل محله جنس وسط يمثل في عقليته متوسط الجنسين اللذين خرج منهما ، وهو مع ذلك أحط من كليهما أدبياً ، لأن الوراثة فرقت عناصر الماضي ، فيظل الفرد بين خلقين متباينين لا يتبع واحداً منهما . وأغلب ما يأخذه هذا الفرد عن الأجناس التي خرج منها عيوبها ، نعني الدرك الأسفل للبربرية الموجودة عند كل الشعوب مهما كان مستواها . ولهذه البربرية اتصال بجذور الحيوانية الأولى التي لا نزال نحمل اصرها . وما بني على مخالطة الهندوسي للأوربي يدلنا على سوء نتائج الاختلاط المذكور بقطع النظر عما هو أنكى منها مما نجم عن مخالطة الزنجي للأبيض

ان المخالطات لم تسر بالجماعات قط في سبيل التقدم ، وكل ما تفعله انها تنزل بها ـ عن الحضارات التي أورثها اياها الاتفاق ـ الى مستواها هي. وامامنا مثل على هذا لا يزال موجوداً في السكان الاسپانيين الامريكيين حالا، فاختلاط الجنس الاسپاني الفخور الحاد ـ الذي عمر في القرن السادس عشر ـ بشعوب منحطة ولد أمماً فاسدة ، لا بأس لها ولا مستقبل ، ولا قدرة على أضعف مشاركة في ترقية الحضارة

ولقد أدركت أقدم الشعوب المتحضرة سوء نتائج مخالطة الجنس الراقي للاجناس المنحطة فابتدعت نظام (الفريق) لمنع الجمع بين اناس من اجناس مختلفة ، ويوجد هذا النظام عند كثير من الجماعات القديمة ولولاه لما تخطى الانسان فيما نظن الدرجات الأولى من الحضارة • وبفضله أيضاً وحياطة القانون الديني له نجا الآريون القدماء من مخالطة القبائل السوداء المتوحشة عند دخولهم الهند فلم يصبهم التدلي والاستغراق اللذان كانا لهم بالمرصاد وتمكنوا من اقامة حضارتهم الباهرة على ضفاف (الكنج) وحفظ لهم التاريخ ذكرها . وظاهر مما تقدم ان هذا النظام كانت له اليد الطولى في تاريخ الحضارات الأولى ، فاذا لم نر فيه اليوم عدلا بالقياس على افكارنا الحديثة فانه دام عند كثير من الشعوب بالضرورات التي أوجدته وبالقوة التي اكتسبها بطول زمن فعل التقاليد

ولكن المخالطة ـ الضارة بين الاجناس المختلفة المتفاوتة في الرفعة ـ لا تضر اذا كانت بين اجناس مختلفة الصفات ولكن بدرجة تكاد تكون واحدة من الرقى ، لان صفات الاجناس في هذه الحالة يكمل بعضها بعضاً فتزداد قيمة ونفعاً . ولا يخفى ان جمهورية الولايات المتحدة ـ التي يقدر لها التفوق قريبا على جميع الامم المتحضرة ـ انما تكونت من تمازج الاجناس الراقية في التهذيب المؤهلة الصفات للالفة ، وما تهيأت الفتوة لهذه الولايات المكونة من الانكليز والارلنديين والفرنسيين والالمان وغيرهم من الراقين الا لان العناصر التي

تخالطت هناك جاءت منتخبة من أقدر الموجود عند تلك الامم ومن أقواها ، فمعظم الذين هاجروا الى الولايات المتحدة كانوا من أهل الاقدام وعشاق الضرب في الارض ، ضاقت بهم الآفاق المادية في بلادهم الاصلية ، وزمت امامهم الآفاق الادبية أيام اصابة الاستقلال الخلقي بالاضطهادات الدينية ، فاستيقظ فيهم العزم وزال الروع من يوم هبطوا القارة الجديدة ، فالفوا أمة لا تحجم عن أي عمل ولا ينقصها الا الروح الفني الذي كان يعوز اجدادها . ولا غرابة ، فالذين يغامرون بالمشي في مناكب الارض ويسافرون لافتتاح عالم مجهول لا يتخيرون من الشعراء والظرفاء وأهل الفنون والاحلام

ويظهر ان ما اخترناه من الامثلة لتعزيز الافكار التي بسطناها هنا قد أبعدنا عن المدنيات الأولى المقصودة بهذا الكتاب ، غير انها تضمنت مع ذلك القوانين العامة العاملة من أول التاريخ فالارتكان عليها يمكننا من الدلالة على تأثير هذه القوانين وادراك بعض اسباب تطور الشعوب

وبهذه القوانين العامة نفهم كيف كان هذا الفتح أصلا لمدنية باهرة ، وكيف أدى غيره الى عهد فوضى وتخبط ، وبه نفهم كيف تيسر للشرقي دائماً وضع نيره وعاداته على عاتق مشارقة عقليتهم قريبة من عقليته ، وبه ندرك سبب تفاقم أمر المعارك بين الغربيين والشرقيين وانتهائها بسحق المغلوبين ، ولماذا كان ذاك الشعب أوغيره مستعمراً ، وكيف عرف الاحتفاظ بسلطته على أمم بعيدة لانه كان من جنسها أو لانه احترم عاداتها وعقائدها

وقبل ان نترك أمر العموميات في مسألة الجنس الرئيسية في تاريخ الحضارات نقول كلمة عن المسألة الكبرى ، ونعني بها اكان اطراد تقدم الانسانية مؤدياً الى تساوي الاجناس ، أم الى زيادة الاختلافات بينها

والجواب على هذا سهل اذ يمكن القول بان المستوى الراقي للتهذيب الانساني في صعود دائم ، ولكن الانسانية لما كانت لا تخلو دائماً من وجود أمم في أسفل الدرجات فقد تزداد سعة الهوة بينها وبين الامم الراقية كلما ارتقى التهذيب

ان الرقي ميسر للجماعات البشرية ، حتى المنحطة منها ، ولكن المعروف عن قانون الترقى أن سيره يزداد سرعة كلما تقدم صعدا . فالاجناس الراقية تتطور اليوم بخطى واسعة . على حين ان غيرها لا بد له من قرون طويلة لاجتياز ما اجتازه أجدادنا قبل الوصول الى ماوصلنا اليه . وليت شعري في أية درجة من الرقى نكون نحن عند ما تصل الأمم المنحطة الى درجتنا من الحضارة . ان نسبة البعد بيننا وبينها تبقى كما هي مالم يدركنا الزوال . وبناء على ما تقدم يصح القول بان الاجناس كلما تحضرت لا يمكن ان يكون سيرها الى التساوى بل الى زيادة الاختلاف . وهذا النظام يسرى بحذافيره على الاشخاص ، لان الحضارة لا تؤثر تأثيراً واحداً في عقول غير متساوية ، فالراقية منها يزيد غنمها عن المنحطة وبذلك يزداد الفرق بينها حتما في كل جيل ، ويزداد أيضاً ما دام تقسيم العمل قد اختص الطبقات الدنيا في الجماعات بعمل واحد يتكرر ولايتغير ، فيميت فيها روح الابتكار . والمشاهد الآن ان المهندس الذي يشتغل باستحداث آلة ، يحتاج الى ذكاء اكثر مما كان يحتاج اليه المهندس القديم منذ قرن من الزمان ، وان العامل الحالي على عكس ذلك فلا يحتاج الى مقدار من الذكاء في اتقان صنع قطعة من قطع الساعة طال مرانه على صنعها طول حياته كالمقدار الذي كان اجداده في حاجة اليه باضطرارهم الى صنع الساعة باكملها

وليست الاعتبارات التي ذكرناها بمؤسسة على اسباب نظرية فقط ، فقد حاولنا تعزيزها ببراهين تشريحية ، فدلتنا دراسة الجمجمة عند الاجناس البشرية على انه اذا قلت الاختلافات بين احجام جماجم افراد مختلفين من المتوحشين فالاختلافات عظيمة بين جماجم افراد الجماعات المتحضرة . وعلى هذا فلا جدال في اتساع الهوة بين الطبقات العليا في جماعة ما والطبقة السفلى فيها ، وكلما ارتقت الحضارة زاد اتساع هذه الهوة

واذا قلنا ان افراد الجنس يختلفون كلما امعنوا في الحضارة ، فقد نستطيع

ان نستنتج من هذا ازدياد اختلافهم عقلياً كلما زاد تحضر الجنس ، ولا جدال في ارتقاء المستوى الاوسط ، فقد ابان لنا التشريح ان متوسط سعة جمجمة الاوربيين لا يزيد كثيراً عن سعة جمجمة المتوحشين ، وابان لنا أيضاً ان المخ الوسط يزيد بشيء من البطء ، على حين ان الفرق في السعة بين الجماجم العظيمة والصغيرة في الجنس الواحد يرمي دائماً الى الازدياد

ويؤيد علم النفس المقارن للشعوب هذه النتائج التشريحية ، وقد اقتنعت ـ بعد ملاحظات متكررة اتيحت لي في اسفاري ـ بأن الطبقات الوسطى للشعوب الاسيوية كالصينيين والهندوس لا تنحط عن الطبقات الاوربية المقابلة لها . فالفرق الحقيقي بين تلك الشعوب وبيننا انها ليس فيها أولئك الرجال العظام الذين تجتمع فيهم قوة الجنس ، فيرجع اليهم الفضل في الاكتشافات العظمى التي ترفع مستوى الحضارة . وبديهي ان هؤلاء الرجال يندر وجودهم كلما نزل الباحث في سلم الاجناس ولا وجود لهم قط بين المتوحشين ، وعلى كثرة عدد عظماء الرجال يقاس مستوى الشعب

قال المؤلف : « ان اغلب الآراء المدونة بهذا الباب خصوصاً الاختلافات التصاعدية للاجناس والاشخاص بل للذكر والانثى في رقي الحضارة انما هي نتيجة بحوثنا الشخصية . فمن أهمه هذه البحوث فهي مبسوطة في تواليفنا ومذكراتنا التي نشرناها في اوقات مختلفة وهي : بحوث تشريحية ورياضية في قوانين اختلافات حجم الجمجمة (اقره المجمع العلمي والجمعية الانتروبولوجية بباريس) . ورسالة في فحص ٤٢ جمجمة لرجال مشاهير من مجموعة متحف باريس (نشرتها الجمعية الانتروبولوجية) . وكتاب الانسان والجماعات وأصولها وتاريخها (الجزء الثاني منه) . وكتاب من موسكو الى جبال تتراس في دراسة تكوين الجنس (نشرته الجمعية الجغرافية بباريس) . وكتاب الانتروبولوجيا الحالية ودراسة الاجناس (نشرته المجلة العلميه) . وكتاب علم النفس كعنصر لترتيب الاشخاص والاجناس (نشرته المجلة الفلسفية) اه »

وتدل دراسة الحضارات المختلفة على ان الفضل في كل تقدم تم انما يرجع الى ثلة من عليه الرجال ، ولا عمل للجمهور الا الاستفادة من هذا التقدم ، عدا انه يكره من يتفوق عليه . وما أكثر عدد المفكرين والمخترعين الذين استشهدوا ضحية له وهم مع ذلك زهرة الانسانية ، وعبقريتهم مجلى ماضى الجنس واجياله ، وهم المجد الحقيقى للامة وجماع فخار كافة افرادها

ولا يكون ظهور أعاظم الرجال اتفاقا فهم ابناء وقتهم وجنسهم ، وتعزيز ظهورهم ورقيهم تعزيز للتقدم المثمر للانسانية جميعها ، فاذا تركنا انفسنا لاحلام المساواة العامة واعمانا الكبرياء والغرض كنا أول ضحية. لان المساواة بين الناس لا توجد قط الا في التوسط ، وعلى هذا فهى ظل الغيرة المنحطة ولم تتحقق الا في ازمنة الوحشية

لا تسود المساواة العالم الا اذا انحطت أسباب قيمة الاجناس الى مستوى ما عندها من الدرجات الوسطى ، لان ارتفاع المستوى العقلى لاحقر فلاح الى مثل عبقرية (لافوازييه) لا يتم الا في قرون . اما اطفاء شعلة هذا العقل الراجح فلم يستلزم وا أسفاه أكثر من ثانية واحدة جنت جنايتها فيها مدية المقصلة (يشير المؤلف الى قتل العالم لافوازييه بآلة الجيلوتين الثورية)

ولكن اعمال عظام الرجال – مهما عظم شأنها في ترقية الحضارة – ليست كما يتوهمه الكثيرون ، اذ هي منحصرة في توليف جميع جهود الجنس . وما اكتشافاتهم الا نتيجة سلسلة طويلة من الاكتشافات التي تقدمتها . فهم يبنون بنيانهم باحجار تأتى غيرهم في قطعها

ولقد درج المؤرخون – الذين يتوخون البساطة في التفكير – على وضع اسم رجل بجانب كل اختراع ، على حين ان المخترعات الكبرى التي غيرت الدنيا كالمطبعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائي لم يأت بواحد منها عقل فرد ، والرجوع الى أصل اكتشافها يدل دلالة جلية على انها وليدة سلسلة من الجهود التحضيرية جاء المخترع النهائي تاجا لها . خذ مثلا ملاحظة

(غاليليه) الخاصة بتساوى اوقات تذبذب المصباح المعلق ، فهي التي مهدت لاختراع (كرونومتر) الضبط الذي نتج عنه تمكن الملاح من الاهتداء الى طريقه في الاقيانوس . ومثل بارود المدافع انما خرج من النار الاغريقية بعد تغيير طويل. اما البخار فحصل مجموعة مخترعات استلزم كل منها اعمالاً كبيرة . ولم يكن الاغريقي يستطيع تصور القاطرة البخارية ولوأوتي مئة عقل كعقل (ارخميدس) . ولا غرابة لان صنعها كان يقتضى انتظار التقدم الذي تقدمته الميكانيكا بجهود ألفى سنة

ومهما ظهر العمل السياسي لكبار رجال الحكومات بمظهر العمل المستقل عن الماضي فانه لا يخالف السنة التي يجري عليها عمل كبار المخترعين

ولقد بهر بعضَ الكتاب مثل (هيجل وكارليل وكوزان) وغيرهم كبر شأن الساسة الذين غيروا حياة الشعوب سياسياً ، فأرادوا ان يجعلوا منهم أنصاف آلهة يسجد لهم كل شيء ، ولعبقريتهم وحدها القدرة على تعديل حظوظ الأمم . ولكننا نقول نعم انهم يقدرون على تدمير جماعة من الجماعات البشرية ، ولكنهم لا يستطيعون تغيير مجرى تطورها ، فهو أمر تعجز عنه عبقرية (كروموبل) و (نابوليون) وغيرهما

ونعم ان كبار الفاتحين يستطيعون تدمير المدن والجماعات والامبراطوريات بالحديد والنار ، كما يتيسر لطفل احراق متحف حافل بكنوز الفن ، ولكن هذه القدرة المدمرة لا تغرنا فنغفل عن حقيقة مهمتهم الكبرى

ان عمل كبار الساسة لا يدوم الا اذا عرفوا ــ عرفان قيصر وريشليو ــ توجيه جهودهم جهة مطالب الوقت ، وهناك يكون السبب الحقيقى لنجاحهم قد وجد عادة قبل ان يخلقوا . ولو تقدم زمن قيصر وريشليو عن وقته المعلوم قرنين أو ثلاثة لما استطاع الأول اخضاع الجمهورية الرومانية الكبرى لقانون سيد واحد ، ولعجز الثاني عن تحقيق الوحدة الفرنسية

ان عظماء الرجال في السياسة هم من تلمسوا المطالب التي ستولد وأدركوا

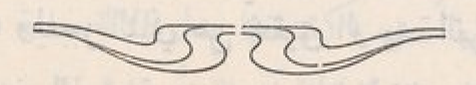
الأمور التي هيأها الماضي فاستبانت لهم السبيل الواجب سلوكها

ولربما غابت عن الجميع رؤية هذه السبيل ، فدفع التطور المحتوم بالأمم اليها ، وكان من شأن الساسة ان شوهدوا على رئاسة أمورها فقط ، فلا خلاف اذن في ان الساسة يفعلون فعل كبار المخترعين ، فيؤلفون بين نتائج اعمال سبقتهم بزمن طويل

ولا ينبغي ان نغالى في وجه الشبه ، فلكبار المخترعين دورهام في تطور المدنية ، وليس امامنا من دور واضح في التاريخ السياسى للشعوب

وترقى المدنية لم يمش دائماً موازيا لترقى التاريخ ، فكبار الرجال الذين يرجع اليهم الفضل في المخترعات من المحراث الى التلغراف ، مما تمتعت به الانسانية ، لم تكن لهم قط الطباع الضرورية للمجىء بدين أو لافتتاح امبراطورية وتغيير مجرى التاريخ ، لان المفكر يرى من تشعب المسائل ما لا يبعثه على الاقتناع التام بالسياسة ، فتقل في نظره الاغراض السياسية الخليقة بجهوده ، فلا يجدّ في أثرها بهمة ، بخلاف من تخصص في الأمور السياسية

ومجمل القول ان المخترعين يستطيعون تغيير المدنيـة ، اما أهل التشيع وذوو الذكاء المعين والطبع القوى والاحساسات الشديدة ففى وسعهم اقامة الاديان والامبراطوريات واثارة العالم . والمثل على ذلك اقوال محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أوجدت القوة اللازمة للتغلب على العالم القديم الاغريقى الروماني ، وصوت بطرس الناسك الذي ساق عدة ملايين من الغرب فانقضوا على الشرق ، ومذهب (لوتير) الذي أضرم في أوربا الحرب بين سكانها ، ولا عجب في كل ما تقدم فصوت مثل صوت (غليليـه) و(نيوتن) ضعيف الصدى بين الجماهير ، ولذا قلنا ونقول ان أفذاذ المخترعين يغيرون المدنية ، وارباب التشيع للاديان ونحوها يخلقون التاريخ



الفصل الثاني

« تأثير تنازع البقاء »

« وتأثير موهبة القدرة على التغيير والتحول والاماني والمعتقدات »

تأثير التنازع على البقاء

التنازع على البقاء حالة طبيعية دائمة في الاجناس البشرية كما في الانواع الحيوانية ، وليست ـ كما أرادوا ان يروها ـ بقية من البربرية آخذة في الزوال. فالحرب كما يبدو شرط اساسى لحياة الشعوب وترقية المدنية

اذا كانت الحالة المذكورة عادة من عادات ازمان الوحشية قل ظهورها شيئاً فشيئاً وندر ، وقلت دمويتها رويداً رويداً وخفت ، ثم انتفى وجودها ـ على ما نرى ـ بين الأمم العريقة في التقدم ، فكان حظها كحظ غيرها من اشكال النظم الاولى كالمشاركة في الاموال ، وكالعبودية ، والامومة ، ولكنها على عكس ما تقدم ، فان فن الحرب ـ وهو أول ما وقفت الانسانية نفسها عليه ـ لا يزال له من عنايتها وعبقريتها وتقديرها النصيب الاوفر ، فهو الذي تختصه الحكومات الحاضرة بأعظم الأوقات وأنفس الأموال ، واتم العنايات . وها هي مسألة قتل أكثر ما يمكن من جنود في أقل ما يمكن من وقت ، من أمهات المسائل الموضوعة نصب عيون الأمم . وها هو تقدم العلم قد استخدم في اتقان آلات الحرب ، فأصبحت قوة التدمير أهون مما كانت عليه . وهذا ـ عدا اضطرار الدول العظمى باوربا الى تجديد سلاحها في اوقات مختلفة فتتكلف ابلغ النفقات ، وعدا ذهاب الاستئصال العلمى بكثير من الارواح البشرية في نسبة تتصاعد على توالى الايام ـ لا جدال معه في ان حروب المستقبل ستربي في دمويتها على حروب الانقلاب الفرنسى والامبراطورية الاولى التي كلفت أوربا عدة ملايين من الرجال .

وليس هذا القتال الدائم الملائم للغريزة الانسانية الخالدة بمقصور على المكافحة بقوة السلاح واهراق الدماء ، بل يتناول أيضاً كثيراً من الوسائل ظاهرها سلمي وهي في الحقيقة شديدة قاسية ، فالمنازعات الصناعية والتجارية التي تقضى على اقطار برمتها وتغدق الثروة على اقطار أخرى لا تقل في نتائجها عما تنتجه أشد الوقائع اسالة للدماء

ويسود التنازع على البقاء في كل مكان يوجد فيه قوي يغلب الضعيف ويسحقه ، وهذا التنازع هو الذي يغري الجيوش بعضها ببعض ، ويجيء الى اسواقنا بقمح الهند وأمريكا فيقلق بال فلاحينا ويطفيء مواقد المصنع العاجز عن مزاحمة مصنع آخر أحسن منه عدة أو ادارة ، وهو الذي يرقى بالعامل المتعلم الى الصف الاول ويرجع بالجاهل العاجز الى المؤخرة ، ولو ضمهما مصنع واحد

ومن العبث ان يجتهد الفلاسفة الانسانيون في انكار قوة حق الاقوى : فهو القانون الحتم الدائم ، وله الاثر الأكبر في تقدم الانسانية

ولا شك هناك في غلظة نتائج هذا القانون اذا كان منبع القوة العضلات وحدها ، ولكننا نرى ان قوة الذكاء تعلو القوة الطبيعية ، ما دامت تخترع السلاح الذي يكسر أقوى السواعد ، وتبتدع الحركات الحربية الماهرة التي تدع السلاح عاجزاً عن فعل فعله ، وتبتكر الآلة العظيمة التي تحل محل ألف عامل في المعمل

ويعد قانون التنازع الدائم على البقاء مهمازاً للذكاء وأقوى مؤثر في الطبع والخلق ، فيزيد المرء عزما ورصانة وصبراً وبعداً في النظر . وكل هذه من أهم عناصر النجاح في حياة الأفراد وحياة الشعوب

ولقد قضى قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح على المستضعفين والعجزة بالزوال من يوم ظهر التنازع على البقاء بين افراد النوع البشري ، وكان مبتدأ ظهوره الوقت الذي عرف فيه الناس اخوانهم في الحياة .

وبالانتخاب الطبيعي المستمر على توالي العصور اكتملت الأنواع الحيوانية واكتمل نوعنا أيضاً

ولقد كان من دوام التنازع على البقاء ، وما نتج عنه من انتخاب الأصلح في كل جيل ، أن اضطرت الشعوب كما اضطرت الأفراد الى عدم الوقوف في سيرها الى الامام والا تخطاها وداسها من هو اكفأ منها وأكبر اقداماً . فكان هذا من أقوى عوامل التقدم . ولا محيص من ازدياد تأثير هذا القانون كلما ازدادت الفروق بين الأجناس والطبقات فازدادت رفعة بعضها واشتد وضوح ضعة البقية

لهذا القانون اذن نفع لا يجحد ولا بد منه وان كان ثقيل الوطأة . ومما ميز به انه جمع في فعله بين سلامة النظر والعماية ، وبين الاحسان والقسوة . وفي وسعنا ان نلعنه ما شئنا ولكننا لا نستطيع تحاشيه

وما قل فعل هذا القانون في صقع ما الا وقل سير التقدم . فعظمة روما انما أوجدتها الحروب الدائمة بينها وبين جيرانها من يوم وجدت . وبهذه الحروب نالت الوحدة والهمة والنظام وحب الوطن وجميع الصفات الحربية التي جعلتها سيدة العالم . ولما تم لها قهر ايطاليا كانت مزاياها العسكرية قد بلغت الاوج فوقفت هناك . ثم بدت لها قوة أدبية اكتسبتها تدريجاً وكانت لا تقل عن قوتها المادية عظمة ، فهبت من ثم لافتتاح العالم وأحرزت المجد العريض ، حتى اذا لم يبق لها من خصم وزالت حاجتها الى القتال ابتدأ انحطاطها . ولما استنامت للراحة وأمنت على امبراطوريتها الشاسعة من المزاحم لفقدانه أخذت في التدهور وانتهى امرها الى الدمار

ان جميع الأمم التي أوتيت حدوداً طبيعية قوية ومناخاً طيباً ووفرة في الطعام فانتفى عندها وجود التنازع أو كاد بقيت في حال حضارة منحطة . والمثل الصينيون فان امبراطوريتهم الشاسعة لم تعرف عدواً ولا خصماً من مدة طويلة ، والمثل الثاني وهو أحط من الأول شعوب الاقيانوسية فان كلا

منها عاش بمعزل عن غيره في جزيرة صغيرة طيبة المناخ فلم يجد ما يدعوه الى بذل جهده فبقي الجميع من جراء ذلك في الوحشية الأولى

ونجمل ما مر فنقول : ان التنازع على البقاء يبدو لنا ابديا سرمدياً في تاريخ البشر ، ومهما كانت شدته فانه مفعم بالنتائج النافعة . وان أقدم اشكاله وأوضحها وأكثرها طبيعية الحرب ، فبها ظهر في الجماعات القديمة ـ عند ما كان معظم العالم في البربرية ـ ثم لم تبد المنازعات الصناعية أو التجارية الا بعد ان ترقت التجارة والصناعة

ولقد مر على الانسان كثير من القرون في مكافحات دائمة بالسلاح فرقت فيه غرائز الافتراس الطبيعية الأولى ، ثم جاء بريق طلاء المدنية الحاضرة فجعل يخفي هذه الغرائز أحياناً ولكن هذا الطلاء قليل الثبات سهل الزوال ، وها هي باريس البديعة المتنخلة لم تخل أيام انقلاباتنا من شهود افعال وحشية لا تقل فظاعة عن مذابح اعرق العصور في البربرية

ان شدة القسوة التي في الطفل تظهر لنا قرارة طبيعتنا ، وهي في تلك السن التي لا نعرف فيها اخفاء عواطفنا . وان ما نستطيبه من شهود مقاتلة الثيران ومباشرة الصيد والقنص يشهد بوجود استعدادات غريزية قوّاها مرور الزمن ، فلا تستطيع ويلات الحروب الحديثة تخفيف امرها

ولا يمكن ان يخفف عواطف الافتراس الطبيعية ـ المستقرة في الانسان رهينة الظهور عند سنوح الفرصة ـ الا مشاعر الحنان وحسن الرعاية والعطف وهي مشاعر ترمي المدنية الى ترقيتها في الناس شيئاً فشيئاً . ولقد كنا نغتبط بذلك اذا اقتصرت نتائج أمره على ارضاء ميولنا الانسانية ، ولكن كثيراً من الفلاسفة يتساءلون عما عسى تحدثه ترقية عواطف الحنان من المتاعب لأعقابنا ، وما يمكن أن تلحقه برقي المدنية من الضرر

يقول بعض المفكرين ان التنازع على البقاء لما كان لا يختص بالعيش والتناسل الا الأذكياء والأقوياء وأهل التدبير فهو اذن من محسنات نوعنا

يحسنه على توالي القرون . والحنان الحالي ضده ، لأن من يحميهم وينقذهم ويطعمهم انما هم أهل العاهات والحمقى وقصار النظر والعجزة ومن اليهم ممن لاقيمة له في المجتمع . فلو لم يكن في الأمر الا صيانة وجودهم الذي لا فائدة منه لما توجه عليه اعتراض ، اما وهو بحمايته لهم ييسر لهم النسل والتعقيب فقد تتخلد وتتضاعف عناصر الانحطاط والقهقرى والضعف في الأمة . وبديهي اننا لم نصر الى ما نحن عليـه اليوم لو كانت الأجناس الضعيفة لم تذهب فيما مضى أمام الأجناس القوية التي قست وجدت في تنظيف الطريق الذي تتقدم فيه اليوم بخطى واسعة

تأثير أهلية الشعوب للتغيير

لا بد ـ في قدرة أي شعب على التقدم ـ من أن يكون قادراً على تغيير ما بنفسه ، فلا رفعة على درج الحضارة الا بشرط الحصول تدريجاً على صفات جديدة ، وهذا هو المقصود من التغيير

واذا كان التغيير روح التقدم فالثبات على حال ما لا يقل عنه لزوماً . اذ الشعب الذي يريد الخروج من البربرية والارتفاع في سلم الحضارة ينبغي له أولاً أن ينجح في اخضاع نفسه لقوانين ثابتة ، ومن هذا يتضح أن الشرط الأساسي لرقي حضارة الشعب مزدوج ـ وان ظهر تناقض هنا في وجوب احراز الشعب صفتين متضادتين في أفكاره ونظمه وخلقه ـ ونعني بالصفتين الثبات والحركة

ومن أشد المستصعبات ايجاد توازن عدل بين هاتين الصفتين . فالنادر من الشعوب من نجح في تحقيق هذا التوازن ، وأندر منه من احتفظ به ، لأن الثبات اذا عظم في وقت ما وقف الشـعب في تطوره الى التقدم كما بالصين ، واذا اشتدت الحركة فقد الشعب كل تماسك وتبعثر . وهذا المصير انما يدرك الشعوب التي تتغير انظمتها وحكوماتها بكثرة

وليست « الأهلية للتغيير والتحول » الا القدرة على التكيف تبعاً للظروف الخارجية للعيش ، والفرد كالشعب يتغير كلما تغيرت ظروف وجوده وكان على علاقة مع عدد كبير من مختلف الأشخاص أو الشعوب

كانت حياة الأوائل واحدة على وجه التقريب في كل مكان ، فالاضطرار الى التحول وتولد موهبته ظهرا ببطء كثير وفي زمن متأخر . وهناك بعض الشعوب المتوحشة لم ترقط ضرورة تدعوها الى تغيير طراز عيشها منذمئات من القرون . ولا غرابة فقد وجدت نفسها على علاقة بشعوب متوحشة مثلها فلم تحتج الى التغيير نعني الى التقدم . فطبع روح التقليد فيها على نماذج واحدة فانتهى أمرها جميعها الى التماثل مادياً وأدبياً . وقد ترى ان المتوحش يأتي بحركة فيقلده فيها صاحبه ويقتدي بهما البقية كما تفعل جماعات القرود

ولا شك في أن ضرورة التعاون على الدفاع كانت السبب الأول في تثبيت العادات عند الجماعات المتشاركة القديمة ، فكان لا بد عليها من العمل بعضها مع بعض اذا أراد كل منها تحاشي الفناء منفرداً ، اما الجماعات الأولى التي توصلت الى ايجاد شيء من النظام عندها فقد اكتسبت تفوقاً عظيماً على غيرها ، وأهمية هذا النظام هي التي جعلت الجري على العادات غاية في الشدة لأنها هي الأصل في وجوده

وما اسرع ما أُلحقت بالنظام المذكور الفكرة الدينية وتقررت العقوبات الشديدة حتى لا يخالفه أحد ، ثم زيدت على قوانين النظام بعد صبغه بالصبغة الدينية قوانين اخرى جديدة ، وكان مدارها كلها على طمأنينة الجماعة ورفاهتها . ولم يكن فيها اعتبار للفرد ، لأن حياته منفرداً مستحيلة ، فطبيعي اذن ان يضحى به في سبيل المنفعة العامة ، ومن هنا تتضح لنا قوة العادة . ونفوذ الحكومة في الجماعات القديمة ، فلقد كان نيرهما طبيعياً لم يستشعره أحد وكانت الحرية الشخصية امنية بعيدة لم تحلم بها حتى العقول الراقية

ولقد كان من أمر جمهوريات أثينة ـ التي أراد اتخاذها المتظاهرون بالعطف

على الجماهير نموذجا لاحلامهم الاستقلالية – ان يحاط الافراد فيها بنطاق من القواعد تعد في نظرنا اليوم كالاغلال ؛ فلم تكن هـذه الجمهوريات تعترف بالحرية الدينية ، لان المناقشة في قوانين الحكومة تزعزع اساس البناء الاجتماعي ؛ ولا بحرية التعليم ، لان الاطفال تربيهم الحكومة لنفسها . وكان الوطنيون في (اسپارطة) لا يجوز لهم اختيار ساعة الطعام ولا صنفه ، وكانوا يأكلون جميعاً على موائد واحدة . وكان المجدد المبتدع في جميع الحضارات الأولى كالعدو ، يثور الشعب عليه ويطلب قتله ولو كان سقراطا بعينه

وتتضح للقارىء ضرورة امثال هذه النظم للامم التي يهددها دائما عدوها الخارجي ، لانها لا تقاوم الا بفضل النظام القوي الذي يجعل من مجموعها رجلا واحداً . ولقد هلكت اليونان لانها لم تستطع ان تعمم نير العادات الموحدة وتوجبها وجوباً على مختلف مدنها

وفي التاريخ شعب قديم نجح اكثر من سواه في الاحتفاظ بالموازنة بين الثبات والتغيير ، قروناً طويلة ، ونعنى به الشعب الروماني ، فقـد كان على احتكاك دائم بالاجانب في فتوحاته فعدل نظمه شيئاً فشيئاً : تارة على مقتضى الظروف الجديدة التي يوجده فيها اتساع سلطانه . وطوراً بأخذ النافع عن الاقطار التي يتغلب عليها . غير ان عهد الفتوحات والتغييرات المرقية لم يتح له الا بعد زمن طويل انقضى في تأسيس حكومته وقوانينه على أسس وطيدة ، فلم ترتق موهبة التغيير والتحول في روما الا بعد ان اكتسبت نظمها ثباتاً عظيماً . وتوازنت من ثم صفتا الثبات والحركة عنده مدة قرنين أو ثلاثة قرون كانت من أزهر ما مر بالشعوب ومن أعظمها رفاهة

وقلما يجد الانسان مثل هذه الموازنة في الازمنة الحاضرة التي تتغير فيها ظروف العيش باكتشافات العلم والصناعة ، وسرعة سير الافكار ، والتقريب ما بين الحضارات المختلفة . ولا يخفى ان التغيير يجيء بالانقلابات التي شرعت تتكاثر شيئاً فشيئاً في دنيانا القديمة

والشعب الأوربي الذي عرف مزج الثبات بموهبة التغيير ـ بمثل الدرجة التي كانت للرومان ـ انما هو الشعب الانكليزي ، فانه يحسن نظمه منذ قرون بانتظام وبلا اضطراب في الاغلب. ولهذه الموازنة بين التغيير والثبات يرجع معظم الفضل في تكوّن قوة انكلترا

وبناء على ما تقدم نقول : ان المهم لامة من الامم انما هو احراز عادات على شيء من الصلابة بحيث لا تتغير بسهولة ، وعلى شيء من المرونة بحيث يمكن ان تتغير ببطء، والتاريخ ممتلىء بأنقاض الامم التي هلكت لانها لم تصل الى حل هذه المسألة العسيرة

وتأثير البيئة هو التأثير الذي لا تتخلص منه الشعوب بسهولة اذا ارتبطت بالعادة ورباطها وثيق لتأصلها في النفوس . ولهذا التأثير نفوذ عظيم حتى في عقول أرقى الاشخاص، بحيث تجد جميع حاصل الفن والعلم عند أي شعب مطبوعاً بطابع الروح الوطني وبالمميز الخاص للزمن الذي حدث فيه . وما الفلاسفة والفنيون والكتاب والشعراء الاتراجمة يعرب كل منهم بلغته الخاصة عن افكار جنسه وزمنه وعقائدهما وأوهامهما . ولهذا السبب كان للتواليف نفع كبير في تفهم أية مدنية من المدنيات

أما الشخصية الخاصة ـ نعني بها قدرة الشخص على مخالفة من يعايشهم ، واطراح نير الرأي العام والعرف ـ فموهبة من أندر المواهب ، وتجدها ظاهرية اكثر منها حقيقية. فالمنكر ـ الذي يتقدم أهل عصره كثيراً بما يدلي به ـ لا يصغي اليه أحد في حال حياته . وليس المصير الطبيعي للمجدد والمبدع الا ان يذهب شهيد تجديده وابتداعه

ومن الحقائق ـ التي نراها اليوم عادية ـ الحقيقة التي رآها (غليليه) بشأن حركة الارض ، فقد قوبلت بالاعراض العام عند ظهورها . وعلى هذا فليس لكل عصر من العصور الا طائفة معينة من الحقائق يستطيع ان يتقبلها ، وللزمن وحده القدرة على تغيير الأفكار والمعتقدات

وكل ما مر بالقاريء من الاعتبارات السابقة المختصرة يدل على مقدار بعد المدنية عن الشعوب المنحطة ، المحصورة منذ أجيال في دائرة عادات لم تتغير بحيث صارت مستعصية على التغيير ، ويدل من جهة أخرى على سقوط كل أمة أفقدتها الظروف الثبات بزجها في سبل التغير الشديد القصير الأجل . وعسانا بعد ذلك أن نكون قد بينا قوة الثبات والتحول في نشوء المدنيات وتقدمها وانحطاطها

تأثير الاماني والمعتقدات

تخصص الشعوب والأفراد معظم وقتها في الوجود للجري وراء مطمح أعلى ومثل أسمى هو المسمى بقولهم (ايديال) في كثير من لغات الغرب ويعد حلم السعادة التي يجدّ خلفها كل فرد من أقوى العوامل في تطور الحضارات . وهذا الحلم ممكن التحقيق في هذه الدنيا على قول بعضهم ، وخاص بالحياة الأخرى على ما يرى آخرون

وبديهي ان حلم السعادة خير معين للمرء على عمله الشاق ، وخير صارف له عن الشعور بقسوة الحظ ، وهو عزاء كل فرد منا عما يصيبه لأنه يعزيه بالتطلع الى الأمام والتعويل على الغد ، فيمني النفس بمجيء الثروة أو المجد أو نور الحقيقة أو أي سعد من السعود التي نتهالك جميعاً في تأثرها من المهد الى اللحد . فكلنا يسير ويداه مبسوطتان الى ذلك الخيال يبغي الوصول اليه فلا يتاح له اللحاق به ، وتكون الخاتمة عثوره بحفرة قبره

وهذا المطمح العام الذي يجتهد علم النفس في تحليله ، وتفهم ما فيه من روح العناد والاصرار ، انما هو في عرف آخر التحاليل عماد العالم ، وصرح التقدم الذي ترفع الانسانية بنيانه منذ كثير من القرون ، بل هو بابل الشماء الشامخة بأنفها على مخرج الصواعق السماوية ، ومجرى الغيوم المنذرة

وما انفك الانسان الحي من يوم خلق يجاهد ويموت في سبيل مطمحه

الأعلى، وسواء كان هذا المطمح سامياً أم وضيعاً ، عدائياً أم سلمياً ، فانه شارد امام الانسان على الدوام ، وليس التاريخ الا حكاية الجهود التي بذلها الانسان للوصول الى مطمح يعبده عبادة ثم يعود فيهدم كيانه وينطلق وراء سواه . ولكم اريقت دماء كالانهار دفاعاً عن اسخف المعتقدات ، وكم دك من امبراطوريات عظمى وأقيم غيرها

ولقد كان مطمح الشعوب في العصور الأولى منحصراً في الرفاهة المادية ، ثم انحصر بعد ذلك في رفعة الجماعات المشتركة وعظمة المدينة والوطن ، ثم ثبطت عزيمة العالم أمام الجبروت الروماني ووقت تهديدات البرابرة ، فألقى بهذا المطمح الى الحياة المقبلة . ثم جاءت المسيحية فقالت انه لا يتحقق الا في السماء . اما اليوم فالبحث عن تحقيقه انما هو في الكمال المرجو مستقبلا للانسانية ، ولذا يضعون هذا المطمح بين الطرفين اللذين ذكرناهما ، فيقولون هو فوق متناول كل فرد على حدة ولكنه ميسور للجميع في هذه الدنيا في المستقبل البعيد

ولا نستطيع حصر المطامح المختلفة التي طمح اليها الناس على تباين العصور الا باجمال ، كالذي فعلناه به . ولكل شعب بل لكل فرد مطمح خاص به ، يتبع ذوقه ، وسنه ، وذكاءه ، وكيفية ادراكه الدنيا والحياة . فالهندوسي المتعصب الذي يلقي بنفسه تحت عجلات مركبة الآلهة ، والناسك الذي يقضي حياته أمام فتحة قبره ، والجندي الذى يلقى الموت في سبيل نصرة علمه ، والشحيح الذي يشتغل الدهر بعدّ نقوده ، والعالم الذي يقضى عمره في البحث عن سر من اسرار الطبيعة ؛ كل اولئك انما يقودهم المطمح الأسمى الذي رموا اليه وجعلوه قبلة لهم

ولا عدّ لاشكال المطامح كما قلنا ، لأن اختلافها كاختلاف النفوس البشرية ، فلا مشاركة بين هذه المطامح ، الا انها عادة من الأماني العديمة الجدوى ، ومع هذا فلها السلطان الاعظم على النفوس

ومن المعتقدات ما يضحكنا اليوم وقد كان بهجة أجيال برمتها من البشر رأت فيه نعمى الحياة ، ولاشك فى أن أفكارنا الحالية ـ التي نغتبط بها ونعتبرها من أنفس الحقائق التي جاءت بها انقلاباتنا الخالدة ـ ستكون عند اعقابنا كالظل الزائل ، شأنها في ذلك ما نراه الآن في المعتقدات الساذجة التي ملكت نفوس آبائنا الاولين

ولا جدال في ان جميع المطامح كالظلال ، ولكنها من تلك الظلال الوارفة التي لا تستغني عنها الانسانية ، فبها تكبر ، ومن أجلها تعمل وتحتمل العناء بصدر رحيب

ويريد التشاؤم الحالي ان يقضي على تلك الخيالات التي يدعوها بالدين والشرف والوطنية وحب المجد . ولكن قوة الأمل كان من شأنها ان جعلت (العدمية) ـ وهي آخر صور التشاؤم ـ تلوذ بأشد ماعرف من أشكال الاعتقاد ولغته وعواطفه ، وان يظهر على مذهب (التفكير الحر) مذهب عدم التسامح وهو صفة الغيور الحاد المستمسك بالتقوى . وعلى هذا نقول ان (التوكيد) سيبقى دائماً أعظم انسانية من (الشك والنفي) . ومما يؤخذ على طبيعتنا فيؤلم ويعزي في آن واحد ، ان من يشن الغارة على المطمح يخلق لنفسه بفعله هذا مطمحاً آخر ، وان من ينكر السعادة لا ينفك يبحث عنها فيما يظهره من كبرياء ، وهو ذاك الظل الزائل الفاني

ان جميع العظماء ـ الذين ظهروا في بعض الأوقات بمظهر المسيطرين على مصائر الناس ـ لم يكن عملهم الا الأخذ بمطمح جنسهم ووقتهم وحصره والتعبير عنه ، وان أكابر قادة الشعوب لم يقودوا أممهم الا بأحلامها الخاصة بها ، فموسى (عليه السلام) مثل للاسرائيليين شهوة الحرية التي كانت كامنة من سنوات في نفوسهم المستعبدة وتحت جلودهم الممزقة بسياط المصريين ، فتم (الخروج) الموموق والخلاص المروم . وبوذا ويسوع (عليه السلام) سمعا صيحات البؤس المتناهي ، ولم يخترعا الشفقة اختراعاً ، فهي ـ وان كانت من

العواطف الجديدة عند الانسانية ـ فانما تولدت شيئاً فشيئاً من العطف على ضحايا تلك الآلام التي لا يضمن أحد لنفسه السلامة منها

أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فجاء بوحدة المعتقد الى شعب كان منقسما الى آلاف من القبائل المتنابذة ، ثم استقى الحماسة من حدة روح جنسه ، واضرمها في صدور العرب ، فهبوا الى افتتاح العالم القديم

ولم يصر نابليون العبقري ربا للانقلاب الفرنسي الا لأنه كان رمزاً دالاً عليه ، ففيه تمثل مطمح المجد العسكري والدعوة الى الانقلاب للشعب الذي لبث ينقله في أوروبا خمس عشرة سنة ، جرياً وراء أعظم المشروعات في ضروب الحماقة

وقد كان المطمح الديني والمطمح الوطني أعظم ماعرف عند الذين قادوا العالم فرأينا المطمحين في الزمن الغابر دائماً مجتمعين فكانت قوة تأثيرهما فريدة في بابها ، تمحى أمامها المطامع الشخصية للفرد ويبقى الخير العام وحده ، فيعمل كل وطني ويقاتل ويعيش ويموت في سبيل المجد وآلهة المدينة ، وهاهي روما المثل على ذلك فقد عبدت نفسها اكثر من سبعة قرون وملأت بهذه العبادة قلوب ابنائها ، ولم تكن لديانتهم من أربطة ووحدة وحقيقة الا لأن الضحايا والاحتفالات كانت ترمى جميعاً الى رفعة روما ورفاهتها ، بل لقد كانت الميول العائلية تزول امام العاطفة العامة . فبروتوس الاول قتل اولاده ، و(بروتوس) الثاني قتل من اتخذه ولدا . لانهما اعتقدا ان مصلحة روما تقضى باهراق هذا الدم . وما استولى على نفوس البشر شيء مثل المطمح الاعلى في قوته واستغراقه كل ماعداه وبعث صاحبه على القيام ببذل أعظم الجهود

ويعدّ الشعب الانكليزي الحالي بخلقه من أشبه الناس بالروماني ، فاخلاصه الشديد الساذج لامرائه وأسرته الحاكمة ـ حافظة الوطن وممثلته ـ يكاد يكون كدينية الوطنى الرومانى . ولا خلاف في ان الانحطاط يسرع الى الأمة التي

لا مطمح لها، لان المطمح - مهما قل شأنه - رابطة بين جهودها المتعددة، يوجه بها الى جهة واحدة

وبعد جميع ماتقدم نقول: ان للافكار القول الفصل في قيادة العالم، فهي تنشأ في البدء نشوءاً غامضاً، وتبقى في غموضها رهن التحول البطيء الى اليوم الذي تظهر فيه بظهور رجل عظيم، أو حادث كبير. وليس المهم في قوة تأثيرها ان تكون من الحقائق، فقد دلنا التاريخ على ان أكبر الاوهام الفارغة اجتذب الناس أكثر مما اجتذبتهم الحقائق المؤيدة بالبراهين. ولا عجب فاكبر الاوهام محبب الى التصور والعواطف وهما أهم نوابض الكيان البشري، وغرور السعادة - الذي يتراءى لنا بكل طريق في اشكال مختلفة - هو الذي يجذبنا جذباً لا تستطاع مقاومته. وبهذا الغرور المعزى السريع الزوال عاشت الانسانية الى الآن وستمضي في عيشها معه أيضاً، فهو اذن من الخيالات الواجبة الحرمة، به عرف أوائلنا الامل فامعنوا في سيرهم وأخرجونا من البربرية الاولى الى ما نحن عليه الآن، ولذا عددناه أقوى عامل في ترقى الحضارات. لا بل نقول أيضاً: انه السبب في اقامة الاهرام بمصر، والاستكثار في أرضها من العمد، والمضي في هذا الشأن مدة خمسين قرناً كاملة. ولسبب مثل هذا أقيمت في أوربا الكاتدرائيات العظمى في العصور الوسطى، وأغري الغرب بالانقضاض على الشرق ليستولى على قبر، وأقيمت امبراطوريات واسقطت أخرى

ان الانسانية لم تنفق من الجهود في تأثر الحق الا أقل مما انفقته في سبيل الباطل. ثم هي لا تستطيع ادراك ما تجد وراءه من الاماني. ولكنها بهذا الجد احرزت كافة صنوف الرقي التي لم تكن في حسبانها

انتهى



فهرس

مقدمة

الحضارات الأولى

الكتاب الاول

في تولد الحضارات

وتولد النظم والعادات والمعتقدات وترقيها عند الشعوب الأولى المتمدنة

صفحة

*
* *

الكتاب الثاني

كيف ترقى الامم الى الحضارة